

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق

ص.ب رقم: ١

www.araspublisher.com

الأزديية

ديانة قديمة تقاوم نواب الزمن!

كاظم حبيب

الأيزيدية

ديانة قديمة تقاوم نواب الزمن!

اسم الكتاب: الأيزيدية ديانة قديمة تقاوم نواب الزمن!

تأليف: د. كاظم حبيب

منشورات ناراس: ٢١٨

الإخراج الفني: بدران أحمد حبيب + دلاور صادق أمين

الغلاف: آراس اكرم

كتابة الغلاف: الخطاط محمد زاده

الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود

الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠٣

رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٣/٣١٨

المحتويات

الإهداء	6
شكر وتقدير	7
المقدمة	10
المدخل	14
الفصل الأول: أصل الديانة الأيزيدية	28
الفرضية الأولى	30
الفرضية الثانية	36
الفرضية الثالثة	38
الفصل الثاني: الديانة الأيزيدية	56
الفصل الثالث: الأيزيديون في العهود الإسلامية	
المبحث الأول: في العهد العباسي	79
المبحث الثاني: الأيزيديون في العهد العثماني	83
الفصل الرابع: الأيزيديون في العراق الحديث	
المبحث الأول: الأيزيديون في العهد الملكي	97
المبحث الثاني: الأيزيديون في العهد الجمهوري	106
الخاتمة	112
الملاحق	
ملحق رقم ١	116
ملحق رقم ٢	120
المصادر	
أ. المصادر العربية والمترجمة على العربية	123
ب. الصحف والمجلات	125
ج. المصادر بلغات أجنبية	125
الصور	127

الإهداء

أهدي هذا الكتاب

إلى أصدقائي الكُرد الإيزيديين الذين يعيشون أعالي الجبال والشمس والقمر، الليل والنهار، ويحترمون الإنسان ويحبون الحياة ويناضلون بحنان من أجل أن يعيشوا بحرية واطمئنان وسلام، وإلى الذين رافقتهم في مسيرة النضال من أجل الديمقراطية للعراق وحق تقرير المصير للشعب الكردي والفيدرالية في عراق ديمقراطي متحرر من الاستبداد والعنصرية والإرهاب وخال من منظمي حملات الأنفال الدموية وجرائم الكيماوي في حلبجة وفي بقية أنحاء كُردستان والعراق...، وإلى كل الذين يعيشون معهم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ويدافعون عنها كما يدافعون عن حدقات عيونهم، إلى كل الذين يدافعون عن حق الإنسان بالعيش في ظل الكرامة والعدالة والديمقراطية والسلام، إلى كل الذين يعملون من أجل أن يتمتع كل الناس في هذا العالم الفسيح بحقهم الكامل في تبني الأديان والمذاهب والعقائد والأفكار والآراء المختلفة وممارسة طقوسهم بحرية ودون أن يتعرضوا إلى التمييز أو الاضطهاد أو الحط من كرامة الإنسان، وإلى كل المناضلين ضد الاستبداد والاستغلال والجور والتخلف والفقر والحرب في كل مكان.

كاظم حبيب

برلين/٢٠٠٢

شكر وتقدير

برز اهتمامي بالجماعة الدينية الكردية الأيزيدية عندما كنت في كردستان العراق وقضيت فيها ما يقرب من خمس سنوات من سني العقد التاسع من القرن العشرين، حيث شاركت في حركة الأنصار المناهضة للحكم الدكتاتوري في العراق، التي ساهم بها إضافة إلى الأحزاب والقوى الوطنية والقومية الكردية، الحزب الشيوعي العراقي وبعض فصائل المعارضة العراقية الأخرى. وخلال هذه الفترة التقيت بعدد غير قليل من الأكراد الأيزيديين الأنصار المناضلين في صفوف الحركة. وتسنى لي أن أستفسر عن، وأحاور حول، بعض جوانب هذا الدين، محاولاً فهم حقيقته ومقارناً ما أسمعهم منهم بما قرأته عنهم من كتابات لمحربين مسلمين بالدرجة الأساس. وزاد اهتمامي بهم عندما قررت أن أبدأ محاولة إنجاز كتاب تحت عنوان "لمحات من عراق القرن العشرين"، الذي سيستغرق بعض سنوات العمر القادمة. وفي المهجر القسري التقيت بالعديد من الأخوة والأصدقاء الأيزيديين المؤسسين والعاملين في المركز الأيزيدي خارج الوطن، ومنهم السيد الدكتور خليل الجندي والسيد الدكتور موم عثمان. ثم دعيت لحضور المؤتمر العلمي الأول الذي عقد في الفترة الواقعة بين ٢٨-٣٠ كانون الثاني/يناير من عام ٢٠٠٠ في مدينة هانوفر بألمانيا حيث تسنى لي الاحتكاك بعدد كبير من الأيزيديين. وخلال السنوات المنصرمة تسنى لي أن أنشر مسودة بحث في مجلة روز التي يصدرها المركز الأيزيدي خارج الوطن، كما اطلعت على مصادر كثيرة حول الديانة الأيزيدية ساعدت على إنجاز هذه الدراسة التي أضعها بين أيدي القراء.

إن الدراسة التي قررت نشرها سوف لن تكون بالنسبة لي خاتمة المطاف في البحث في هذا الموضوع، بل هي محاولة على هذا الطريق، يأمل الباحث أن يتم الحوار حول ما ورد فيها. كما أن الدراسات التي ستلي هذه الدراسة من باحثين عراقيين وغير عراقيين يمكنها أن تفتح آفاقاً أرحب أمام البحث في هذا الموضوع وأمام التيقن الأكثر قوة بشأن صحة الفرضية أو الموضوعية التي طرحتها في هذه الدراسة حول أصل الديانة الأيزيدية. وسيكون مهماً جداً توسيع البحث لاحقاً ليشمل مختلف الأديان التي كانت وما تزال قائمة في العراق.

وشدد من عزمي على الكتابة في هذا الموضوع الحيوي حيازتي ومطالعتي لكتاب

"دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠" الذي أعدته مجموعة خبراء ومتخصصين لها اعتبارها في الثقافة العراقية والمجتمع العراقي، وفي مقدمتهم الأستاذ الفاضل والراحل العلامة الدكتور مصطفى جواد، حيث ورد فيه بشأن أصل الأكراد الأيزيدية ما يلي:

"أصلهم وتسميتهم - لا يُعلم عن أصل اليزيديين شيء، ويقول البارون مكس فون أوبنهايم الألماني "إنهم أمراء أشداء البنية سكنوا جبل سنجار منذ أكثر من قرنين" ويجوز أنهم هاجروا إلى العراق مع الأكراد من الشمال وانفردوا عن بني جلدتهم بالجبال خوفاً ممن يجاورهم فاحتفظوا بدينهم القديم وشيدوا أكثر معابدهم في قضائي الشيخان وسنجان (لواء الموصل) وهم إنما يسمون أنفسهم باليزيدية نسبة إلى يزيد بن معاوية ثاني الخلفاء الأمويين. ويقول المستر لوك (أن هذه القبائل كانت تدعى بالأصل "داسناني" أما اليزيدية فهو أسم أطلقه عليهم جيرانهم)... الخ"^(١).

ما الغريب في هذا الأمر؟ الغريب فيه هو أن الأستاذ الدكتور مصطفى جواد، المتخصص بعلوم اللغة والتاريخ العراقي، يشارك كاتباً آخر بالقول بأن الأيزيديين سكنوا هذه المنطقة منذ قرنين لا أكثر. وهي مغالطة كبيرة، إذ أن كتب التاريخ العربية والكتب الأخرى التي تتحدث عن الأيزيدية تشير إلى وجودهم في هذه المنطقة، التي أصبحت جزءاً من العراق الحديث، منذ عهد الأمويين والعباسيين على الأقل. وأنه لا يعلم عن أصلهم شيئاً في وقت يؤكد فيه أنهم أكراد وأنهم قد انفردوا عن بني جلدتهم بالجبال وحافظوا على ديانتهم القديمة. والغريب فيه أيضاً أنه يلتقط أبعد الاحتمالات وأكثرها تعسفاً في تفسير اسم الأقلية الدينية في العراق على أنه نسبة إلى يزيد بن معاوية ثاني خلفاء الأمويين. وهناك الكثير من الغرائب الأخرى لم أقتطف منها سوى هذا الجزء.

أرجو أن يشارك هذا الكتاب في توضيح بعض الأمور عن الأكراد الأيزيديين الذين ينتمون إلى هذه المنطقة منذ قرون طويلة ويشكلون جزءاً من الشعب الكردي أو الأمة الكردية الموزعة على دول عديدة منها العراق وتركيا وإيران وسوريا.

(١) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠. يصدر بقرار من مجلس الوزراء تحت إشراف وزارة الإرشاد. ط ١. مطبعة التمدن. بغداد. ١٩٦١. ص ٤٣١.

المقدمة

بقلم: الدكتور خليل الجندي

حاول كتاب من قوميات متعددة وأديان مختلفة إصدار كتب أو تحرير مقالات في جرائد ومجلات حول بعض جوانب الديانة الأيزيدية، وقد انطلق كل واحد من أرضية محددة، إما دينية متعصبة أو قومية متمزعة أو موقف فكري أو منهجية إستشرافية شبه جامدة تعتمد على المصادر وكأنها مسلمات.

ولا أنكر بأن أولئك الكتاب ألقوا الضوء على هذا الجانب أو ذاك من جوانب الديانة الأيزيدية سلباً أو إيجاباً. ولربما يبيري المرء ذمة أولئك الذين شوهوا حقيقة هذه الديانة عن غير عمد لأنهم لم يحاولوا دراستها إلا من وجهها الخارجي، وبقيت هذه العقيدة لغزاً ليس لمعتنقي الأديان الأخرى فحسب، بل وحتى لأبناء الأيزيدية أنفسهم بسبب تقوقع هذا الدين على نفسه لأسباب سنأتي على ذكر العديد منها في متن هذه الدراسة، وكذلك لندرة المصادر والمراجع العلمية عنه وعدم وقوع أدبه الديني في متناول اليد.

إذا وضعنا محاولات بعض الشباب الأيزيدي الذي بدأ يكتب عن "المناطق المحرمة في ديانتهم منذ بداية السبعينات وما زال مستمراً عليها بشكل أكثر عمقاً واتساعاً، فإن مؤلف الأستاذ الطيب الذكر جورج حبيب، المنتمي إلى الديانة المسيحية والموسوم: "البيزيدية بقايا دين قديم" بغداد ١٩٧٨، كان فاتحة الدراسات العلمية المقارنة والجريئة حول الأيزيدية. أقول الجريئة لأن نظام البعث الحاكم في العراق كان وما يزال، يعمل من أجل محو الهوية الدينية للأيزيديين وسلخها عن انتمائها القومي الكردي. فجاء إصدار ذلك البحث العلمي القيم ومن قلب العاصمة بغداد تحدياً علمياً بوجه الفكر الشوفيني لذلك النظام. ويجب أن لا ننسى بعض الكتابات القيمة التي نشرت عن الأيزيدية من قبل باحثين عرب نهاية التسعينات في أوروبا، على سبيل المثال د. رشيد البندر في جريدة الحياة.

وبعد مرور ٢٢ عاماً على صدور مؤلف: "البيزيدية بقايا دين قديم"، والذي أضاء زاوية من زوايا المكتبة العربية والإسلامية، فإننا نقف اليوم أمام بحث أكثر رصانة وشموخاً من عالم عربي معروف لا على الساحة العربية فحسب، بل وعلى الساحة

يطيب لي أن أقدم شكري الجزيل إلى السيد الدكتور مو عثمان، الذي طالع المسودة وقدم مشكوراً بعض الملاحظات المفيدة، كما أقدم شكري الجزيل للصديق الدكتور خليل الجندي الذي مدني بالكثير من المصادر والمعلومات، كما أن كتاباته كانت مفيدة في هذا الصدد، إضافة إلى مطالعته للمسودة وتقديمه الملاحظات النافعة، وكتابته المقدمة. وأشكر أيضاً الصديق المهندس صبيح الحمداني الذي طالع المسودة وأبدى ملاحظاته باعتباره من المهتمين بقضايا الأديان عموماً والقديمة منها على وجه الخصوص. كما أشكر الأستاذ حسو أمريكو على ملاحظاته المفيدة التي قدمها على مسودة الكتاب. الشكر يتوجه إلى المجموعة العاملة في المركز الأيزيدي خارج الوطن وإلى كل الذين حاورتهم بشأن هذا الموضوع، كذلك أتوجه بالشكر إلى السادة سدنة المعبد الذين التقيت بهم في معبد لالش في ربيع عام ٢٠٠٢، أثناء زيارة لي إلى كردستان العراق للمشاركة في أعمال المؤتمر الأكاديمي حول مجازر الأنفال وجريمة حلبجة التي خطط لها ونظمها ونفذها قادة النظام العراقي وعلى رأسهم الدكتاتور صدام حسين، والذين تفضلوا مشكورين بمرافقتي للإطلاع على المعبد ومحتوياته وتاريخه.

كاظم حبيب

برلين في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

الدولية كذلك وهو البروفيسور د. كاظم حبيب.

لقد أسس د. حبيب بحثه على منهجية جديدة، منهجية علمية - تاريخية واجتماعية مضافاً إليها بعداً إنسانياً. وإذا كانت الجرأة الفكرية التي عبر عنها جورج حبيب -خلد الله ذكره- في بحثه المذكور آنفاً في وجه النظام الشوفيني الحاكم في العراق، فإن بحث الأخ الدكتور كاظم حبيب هو موقف عربي إنساني في غاية الأهمية، خاصة وأنه يتزامن مع تصاعد المد الأصولي الديني على المستويين الإقليمي والدولي.

يلقي د. حبيب في بحثه الذي بين أيدينا الضوء على مساحات واسعة من الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية للأيزيدية، وكباحث وناقد ثاقب البصيرة يطرح فرضيات ثلاث حول أصل الأيزيدية، ويسبب احتكاكه بهم وإطلاعه عن قرب على بعض طقوسهم وعاداتهم يسجل ميله إلى الفرضية الأولى والقسم الأول من الفرضية الثانية مع إبعاد أو نفي الفرضية الثالثة القائلة بكون الأيزيدية "فرقة إسلامية مرتدة"، أو مجموعة تنتمي إلى القومية العربية. لا يعني هذا أننا ننتقص من الإسلام أو من القومية العربية، لا بالعكس، إذ نكن لكليهما الاحترام. إلا أننا نسجل موقفاً مخالفاً ومعتاباً لأولئك الكتاب الذين "تحدثوا" عن الديانة الأيزيدية ولم يبحثوا فيها. ونعتقد بأن عدم إطلاعهم على النصوص الدينية الأيزيدية وعدم التعمق في معرفة أسباب طقوسهم وعاداتهم، وكذلك انطلاقهم من موقف ديني وقومي بحث، قادهم إلى تلك الأحكام المسبقة وإلى عدم علمية كتاباتهم، وبالتالي، الإسهام في خلق وعي ديني وقومي مناهض للأيزيدية.

وهنا يدخل د. حبيب الميدان ليس كباحث مقتدر وحسب، وإنما كمربّ وعالم اجتماع وداعية سلام ومدافع عن حقوق الإنسان وعن الهوية القومية والدينية لكافة المجموعات البشرية كبيرها وصغيرها، ويرى في عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم ثراءً حضارياً متشابكاً وملكاً للجميع. ومن هذا المنطلق يحمل د. حبيب رسالة إنسانية إلى الأديان المسيطرة عالمياً مفادها: أنه ليس هناك دين يستطيع أن يدعي ويقول أنه يملك الحقيقة المطلقة.

وتوافقاً مع آراء د. حبيب وما جاء في بحثه القيم فإنه لا يجوز النظر إلى الدين كبناء فوقي مجرد، بل لا بد من دراسته بالارتباط مع الواقع الاقتصادي وتطور

الوعي الفكري للبشر في مرحلة تاريخية محددة، فكل دين أثر وتأثر بالأديان الأخرى.

وإذا كان النظر إلى الدين في عصرنا الحاضر كعامل معرقل للتطور، فإنه لم يكن كذلك في قديم الزمان. فقد كان الدين دافعاً وملهماً لعمل الإنسان، وبسبب إيمانه بقوى الطبيعة وضع آلهة لها وبدأ يصنع لها التماثيل ويبني لها المعابد والبيوت والمدن ويقيم لها الاحتفالات والطقوس، أي أن بذور الحضارة بمعناها الاستيطاني العمراني والروحي كان أساسها الدافع الديني إذ اعتبر وعاءاً اجتمعت فيه أفكار الإنسان عبر التاريخ ومرآةً لتطور تلك الأفكار، فهو الذي عكس نشاط الإنسان الروحي والفكري والفلسفي وكذلك القيم الأخلاقية والتصورات البدائية حول كيفية خلق الكون والبشر والأشياء.

ولمن يرغب معرفة جذور الديانة الأيزيدية عن حق، عليه التوقف عند معرفة وتحليل الظواهر الرئيسية التالية:

أولاً: ظاهرة طاووس ملك؛ ما هو الوجه السراني لتلك الظاهرة وما هي إمداداتها الفكرية والميثولوجية في القصص والأساطير التاريخية؟ وكيف ينظر الفكر الأيزيدي إلى مفهوم الخير والشر؟

ثانياً: الأعياد الأيزيدية؛ مفهومها، دلالاتها، أسسها الفكرية والروحية، علاقاتها بدورة الطبيعة والإنسان.

ثالثاً: من أجل توثيق الظاهرتين الرئيسيتين أعلاه لا بد من الإطلاع على ذلك الكم الهائل من الأدب الديني الأيزيدي (الشفاهي في أغلبه) والاستعانة بتلك الرموز والإشارات المبعثرة هنا وهناك في ثنايا الأساطير والحكايات والأدب الديني.

رابعاً: ميدانياً وتاريخياً، فإن دراسة أصول العشائر الأيزيدية ستساعدنا في فك رموز الكثير من الألغاز في العقيدة ارتباطاً بحركة الشعوب والقبائل في التاريخ القديم والتداخل الحضاري والفكري والديني، وبالتالي، منشأ الأديان في المنطقة.

وما دام البشر هم حملة الفكر الديني ومنفذو أوامره وأدوات انتشاره، فإن من المنطق أيضاً إفساح المجال للعقل (الفكر) أن يحقق رسالته ويعالج الأمور بنظرة شمولية ويحاول الاستفادة من كل معطيات العلم، وأن يقيم ما يمكن إقامته من علاقات

المدخل

كانت المنطقتان اللتان تسميان اليوم بمنطقتي الشرق الأدنى والأوسط ثم صعودا باتجاه أفغانستان وشبه القارة الهندية أو وادي حوض السند والصين تعتبران من أهم مراكز الحضارة البشرية القديمة ومن أغنى الثقافات ومهدا للكثير من التصورات والديانات والفلسفات والأساطير والحكايات والخرافات. وكانت تلك الثقافات، والديانات كجزء أساسي منها، تتفاعل في ما بينها وتتأثر ببعضها وتبدو في الكثير من قيمها وتقاليدها وعاداتها وطقوسها متقاربة جدا ومتوارثة أحيانا كثيرة مع وجود بعض الاختلافات، رغم بعد المسافات التي كانت تفصل بين تلك الجماعات البشرية والبلدان في تلك الأزمان. وكان الرسول محمد بن عبدالله على حق، كما نقل عنه، حين قال "أطلب العلم ولو في الصين"، إذ أن كلمة "ولو" لا تمس طبيعة الثقافة الصينية ولا تعبر عن موقف سلبي منها ومن ثقافتها، بل إشارة إلى بعد المسافة الفاصلة بين الجزيرة العربية والصين في إطار مواصلات ذلك الزمان التي يفترض فيها، رغم بعد الصين وصعوبة الوصول إليها، أن لا تكون عائقا في سبيل طلب العلم.

والدراسات الحديثة تشير إلى أن جملة من تلك الديانات القديمة قد انقرضت وحلت محلها ديانات أو معتقدات أخرى، وديانات أخرى منها ما زالت قائمة أو طرأت عليها تغييرات وتطورات وتحويرات غير قليلة، ولكنها حافظت على قاعدتها الأساسية، بغض النظر عن حجم المجموعات البشرية المؤمنة بتلك الديانات. كما أن الكثير من الطقوس والعادات والتقاليد التي كانت قد رافقت الديانات القديمة يجدها المرء اليوم أيضا في ممارسات بعض شعوب المنطقة، رغم التغييرات التي طرأت أو حتى التحولات التي حصلت لدى بعض الشعوب بالنسبة إلى دياناتها. ولا شك في أن الديانات والآلهة السومرية والأكدية أو البابلية والآشورية والكلدانية، وكذلك الديانة الفرعونية، والديانات الأيزيدية والزرفانية^(٢)، والمثرائية^(٣)، والمزدكية

(٢) زرفان إله إحدى الجماعات الدينية الفارسية القديمة. وهي من الجماعات التي ترى الثنائية في الواحد، أي الخير والشر في الإله الواحد، "وهو الإله ذو "الوجوه الأربعة" وتمثل هذه الأوجه أو الصفات: الإنجاب والميلاد، والشيوخوخة والعودة إلى <

وروابط بينها وبين عالم الواقع، بمعنى أن يكون باب الاجتهاد مفتوحاً أمام كل الأديان كي يتسنى لها مواكبة العصر، وتأدية رسالتها التي تنادي بها في محاربة الاستغلال والظلم والدعوة إلى المحبة والتسامح الديني والاعتراف المتبادل والعدالة ونبذ العنف والقتل والهيمنة وفرض الرأي... الخ.

ولا عجب أن يلجأ المرء أحيانا إلى المثل الأعلى القديم ليجد راحته النفسية أو بسبب قيم تربي عليها، إلا أن فرض تلك المثل القديمة بالإكراه ما هو إلا نتيجة خلل في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي المهيم وهروب من الواقع المعاصر وأمر باعتقال العقل كي لا يؤدي وظيفته ورسالته الفكرية الإبداعية.

إن الذين آمنوا بالمعرفة الإنسانية وحدها وجعلوا من الطبيعة ميदानاً لمصدر معرفتهم المبنية على التجربة والاستقصاء والنظرة النقدية ضمن مناهج علمية، هم الذين تطوروا وساهموا ببناء الفكر الحضاري.

يؤسس العقل معرفته على التجربة ويرفض الكثير من المسلمات السابقة ولا يقر بوجود مناطق محرمة لا يجوز الدخول إليها لإنجاز رسالته الفكرية. وكشفت العقل بواسطة التجربة عن سطحية لا بل وزيف الكثير من المعطيات التي كانت تعتبر مقدسة بنظر العديد من الشعوب. هكذا قرأت هذا الكتاب، وكانت مهمة تكليفي من قبل البروفيسور كاظم حبيب بكتابة مقدمة لبحثه باعتباري أحد أبناء الأيزيدية والمهتمين بشأنه حقاً مهمة صعبة، فمهما قلت من كلام هو قليل بحق بحثه الرصين وموقفه الإنساني، وهو بعمله هذا يغني المكتبة العربية والإسلامية بمصدر هام لا يمكن الاستغناء عنه. ولا يسعني في النهاية إلا أن أقدم تمنياتي وتمنيات جميع أبناء الأيزيدية إلى الأستاذ العزيز كاظم حبيب بالصحة والعمر المديد والإنتاج الغزير في الميدان العلمي والإنساني.

أينبيك - ألمانيا في ٢٠٠٢/١١/٧

(الزرادشتية) (٤)، والمانوية، (٥) ثم الفلاسفات والديانات الكونفوشيوسية والتاوية والبوذية والهندوسية وتفرعاتها المختلفة أو غيرها من الديانات وانشطاراتها أو الطوائف والفرق التي تفرعت عنها قد لعبت دورا كبيرا في هذه المناطق الشاسعة من العالم وتركت وراءها آثارا بارزة وثقافات متميزة ومعالم حضارة إنسانية خالدة. واتخذت تلك الديانات من الكثير من الظواهر في الطبيعة أو مكونات الطبيعة أو الكون عموما، أو من أفعال الطبيعة ذات النتائج الإيجابية أو العواقب السلبية على البشر رموزا لعباداتها كالسما والارض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء والنار أو الحجارة والجبال والأنهار أو مختلف أنواع الأشجار والحيوانات والأصنام أو العواصف والرياح والأمطار أو الأمراض والآفات وما إلى ذلك. ولم تكن تلك

> اللامتناهي، كما تمثل عصور العالم". وفي ضوء ذلك ترى هذه الجماعة داخل الإله الواحد جميع مظاهر الحياة الرئيسية "انور، والظلمة، والحرارة والبرودة". راجع في هذا الصدد: بارندر، جفري. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام. سلسلة "عالم المعرفة". رقم ١٧٣. الكويت ١٩٩٣. ص ١٢٣-١٢٥.

(٣) ميثرا إله فارسي قديم سبق الإله مزدك، ويشار إلى أنه إله آري الأصل، كما أن إلهها بنفس الاسم عُبد في الهند أيضا. وكلمة ميثرا تعني العقد أو الاتفاق، وهو إله يحفظ الحق والنظام. كما إنه أحد تجسيدات الشمس. وقد تمتع بالتمجيد والشعبية الواسعة لدى الفرس. وانتشر هذا الدين بشكل واسع في ظل الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادي. راجع في هذا الصدد: بارندر، جفري. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. مصدر سابق. ص ١٢٥-١٣٠. وكتاب: توكاريف، سيرغي .. الأديان في تاريخ شعوب العالم. دار الأهالي. دمشق. ١٩٩٨. ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٤) المزدكية أو الزرادشتية ديانة فارسية قديمة تلت الديانة الميثرائية من حيث الفترة الزمنية ورافقتها. ومزدك هو إله الديانة الفارسية والتي تسمى باسمه أو باسم نبي الديانة المزدكية، زرداشت، إذ أنها تسمى باسمه في غالب الأحيان، إذ يعتبر المؤسس الفعلي للديانة وصاحب كتابها الموسوم (أقيستا). ويدعى هذا الدين أحيانا بالدين الأقسستي.

(٥) المانوية ديانة قديمة تلت الديانة المزدكية (الزرادشتية) ورافقتها، وهي منسوبة إلى ماني المولود في أسرة بارثية ملكية (٢١٦-٢٧٤ م)، والذي أعلن على أنه المتسم لدين زرداشت، وكان متأثرا بالديانات البابلية القديمة إذ قضى جل شبابه في بلاد ما بين النهرين. اضطره أتباع الديانة المزدكية ومات في السجن مقيدا بالأغلال. راجع في هذا الصدد: بارندر، جفري. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. مصدر سابق. ص ١٢٩.

الديانات متقاطعة، بل كانت متقاربة جدا وأحيانا منسلخة بعضها عن البعض الآخر أو منشقة عليه، أو في أحيان أخرى تشكلت ديانات أو معتقدات جديدة بعد أن حذفت منها طقوس وتقاليد وعادات أو إضيفت إليها جملة من الطقوس والتقاليد الجديدة. ومن يعود إلى حوض وادي السند أو الصين أو إلى بلاد فارس أو إلى بلاد الرافدين (ما بين النهرين)، سيجد أمامه تشابكاً وتفاعلاً واقعياً مقبولاً من سكان تلك الحقب الزمنية بين الديانة السومرية والديانات الأكديّة والبابليّة والآشورية والكلدانية ودخول أسماء الآلهة المشتركة بلغات تلك الشعوب والحضارات، كما هو الحال بالنسبة لآلهة السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين والكلدان (٦).

(٦) ملاحظة: لا شك في وجود بعض التمايز بين الآلهة السومرية من جهة، والآلهة الأكديّة والبابليّة والآشورية من جهة أخرى، فالأولى تنطلق، وفق تقديرات تستند إلى جملة من حقائق وما وصل إلينا من تلك الفترة، من أرض العراق ذاته، وبالتالي، من التقاليد والعادات والطقوس التي ورثتها عن حضارات سابقة لها نشأت على أرض العراق أو البلد المجاور للعراق إيران. في حين يرى البعض الآخر أن السومريين ينحدرون من أصل آري وأنهم نزحوا إلى العراق من مناطق الهند عبر فارس، في حين أن الآلهة الأكديّة والبابليّة والآشورية مثلاً هي آلهة جاءت بها تلك القبائل البدوية المنتقلة من مناطق السهول العمورية، شمال سوريا ووادي الفرات الأوسط، والتي جاءت قبل ذلك من شبه الجزيرة. ففي ملاحظة على مسودة البحث قدمها الأستاذ حسو أمريكو يشير فيها إلى الفارق القائم بين مفهوم الآلهة عند السومريين من جهة، ومفهوم الآلهة عند الأكديين والبابليين والآشوريين من جهة أخرى، إلى أن الإدارة الإلهية كانت عند السومريين لامركزية حيث يتجسد في الإله الواحد الخير والشر، في حين أن المركزية هي التي تميز الآلهة السامية، وأن الإله الأكبر عند الأكديين والبابليين والآشوريين، بغض النظر عن الاسم الذي يتخذه، هو إله قومي ومحارب. ويرى أن ذلك التباين ناشئ عن الاختلاف بين المفهوم السومري والمفهوم السامي، أو المأخوذ عنهم، للدين والحضارة، وهي مرتبطة، كما يراها السيد حسو أمريكو، بالبيئة، أي البيئة السومرية الغنية القائمة على التنوع والتعدد، في حين بيئة الساميين صحراء جرداء...

يبدو لي بأن هناك فوارق مهمة بطبيعة الحال بين طبيعة ووظائف الآلهة، ولكن علينا أن لا نخضعها لمعاييرنا الراهنة وتفسيراتنا التي ربما تتجاوز كثيراً رؤية تلك الشعوب إلى آلهتها، كما أن الجانب البارز في آلهة حضارة وادي الرافدين السومرية أو <

لقد كانت تلك الظواهر اليومية تشكل جزءاً أساسياً وعضوياً من حياة الإنسان والمجتمع اليومية، من همومهما ومشاكلهما، من مراقباتهما وملاحظتهما وصراعاتهما مع ظواهر الطبيعة مثل العواصف والرياح والأمطار والرعود والبروق والفيضانات والبحار والأنهار والجبال والحجارة والتربة والأشجار والنباتات، وحالات الخسوف والكسوف وحركة الليل والنهار ومسار الشمس والقمر والكواكب والنيازك، مع الخوف من الحيوانات المفترسة والاستفادة من الحيوانات الأليفة والمنتجة للمواد الغذائية، مع الصيد والحرب، مع المرض والموت والخلود، مع الجنس والإنجاب والنمو، مع الآخرين أو مع المجتمعات الأخرى، كانت تلعب دوراً كبيراً في وجود الإنسان والمجتمع واستمرار ذلك الوجود وتطوره، وفي مدى حصولهما على مستلزمات معيشة الفرد والمجتمع وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة. وكانت هذه الحقائق اليومية تتخذ صبغاً حسية وعملية دون الحاجة إلى تجريدات فكرية، إذ كانت تتجلى في النقش على الحجر والتماثيل والأساطير والملامح وغيرها التي كان بها وعبرها يستعيد الإنسان علاقته بتلك الأشياء وبالظواهر، سواء كان ذلك باتجاه استمالتها (أو) والسيطرة عليها والاستفادة منها لصالحه أو الخلاص من عواقب أفعالها وشروورها أو حتى محاولة خداعها ومخاتلتها بهدف التغلب عليها. ويبدو هذا واضحاً في التعامل مع الأمراض. علماً بأن الإنسان بدأ منذ فترة متأخرة يمارس الرسم بأشكال تجريدية أو تصورات وأفكار ذات أساس واقعي محرف، إذ ما يزال يتم العثور عليها في الكثير من الحضارات القديمة وفي الرسوم في الكهوف وفي أعالي الجبال. وكان بعضها يعبر عما كان يراه في أحلامه بسبب الإضافات التي كانت تلحق بتلك الصور والتي كانت تبتعد عن واقعها الفعلي. وتشير الأبحاث والدراسات التطبيقية على شعوب كثيرة في بعض مناطق أفريقيا وجنوب شرقي آسيا إلى أن الإنسان فيها، الذي يعيش وفق الأسس والقواعد القديمة والذي لم يعرف الحضارة الجديدة، ما يزال حتى يومنا هذا يمارس ذات الأساليب والأدوات أو الصيغ، سواء مسّ ذلك قضايا الصيد أو التعامل بين أفراد المجتمع أو الرسم على الجدران أو

> الأكدية والبابلية والآشورية، إلى جانب تعددها وتنوعها وكثرتها، وجود إله يعبد على مستوى القبيلة كلها أو دولة المدينة حينذاك، وبالتالي الدولة المركزية فيما بعد، والذي يسميه السيد حسو أمريكي بالإله القومي، أي لكل المجتمع.

علاقة الإنسان بالطبيعة... الخ.

ورغم الاختلافات التي ظهرت في النظريات التي قامت بدراسة وتفسير الأديان ودورها وأهميتها ومحاولة معرفة تطورها التاريخي منذ بدايات بروز هذه الظاهرة الإنسانية، فإن الواقع يشير إلى أن الأديان كانت وما تزال تجسد في حقيقة الأمر صورة محرفة للوعي وللواقع أو للوعي بالواقع في آن، إذ كان الإنسان القديم يحتاجها في حياته اليومية وفي مواجهة المشكلات والمصاعب التي كان يعجز عن السيطرة عليها بمفرده أو ردّها أذاها عنه أو تقليل آثارها السلبية عليه. كما إنها تعتبر صورة محرفة ومقارنة لتاريخ تطور المجتمعات البشرية نفسها^(٧). إذ أن الأديان لا تجسد الواقع القائم بحذافيره وليست انعكاساً دقيقاً له، بل تطرح صورة جديدة، صورة تجسد في مضمونها وأشكال التعبير عنها تفاعلاً وتشابكاً بين الواقع ووعي الإنسان لهذا الواقع، هذا الوعي الذي لا ينفصل عن انفعالات وصراعات ومشكلات وتخيلات الإنسان. فالدين كما يرى إنجلز "يحتفظ دائماً باحتياطي معين من التخيلات الموروثة عن الأزمنة السابقة، لأن التقليد في جميع الميادين الفكرية، بوجه عام، هو قوة محافظة كبرى، ولكن التغييرات التي تحدث في احتياطي التخيلات هذا، تحددها العلاقات التطبيقية، أي العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الناس الذين يقومون بهذه التغييرات"^(٨).

ومن هنا يمكن أن تفسر أيضاً ظاهرة تعدد وتنوع الآلهة والأشكال والصيغ المختلفة التي كان يجري التعبير عنها، سواء كان ذلك في المدينة الواحدة أو المدن المتقاربة. إن علم الأديان، رغم كونه علماً مستقلاً بذاته، غير منفصل بأي حال عن علم الاجتماع وعلم النفس، وعن علم التاريخ وعن وقائع تطور المجتمعات البشرية. فدراسة الأديان القديمة يفترض أن لا تغفل بأي حال العلاقات الاقتصادية

(7) Tokarew, S.A .Die Religion in der Geschichte der Voelker .Berlin .Dietz Verlag ، ١٩٧٨ .S.17/18.

K .Marx .Zur Kritik der Hegelschen Rechtsphilosophie .Einleitung .In: Marx/Engels: Bwerke .Bd .١ .Berlin 1961 . S26/27.

(٨) أنجلز، فردريك. لودفيخ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، المختارات. ج

٤، موسكو. دار التقدم. ص ٦٠.

والاجتماعية والأوضاع النفسية وهموم ومشكلات وطموحات ومشاعر الناس والمجتمعات التي خلقت تلك الأديان أو التي تبنتها وسارت عليها. فظروف ومستلزمات الحياة والمعيشة اليومية الملموسة للبشر في كل منطقة من مناطق العالم والصراعات بين القبائل كانت وما تزال تلعب دورها البارز في البنية الدينية، وفي الرموز التي يقدسها أو التي يعبدتها الناس أو الطقوس التي يمارسها كأفراد وجماعات، وفي سبل وأدوات وأشكال وصيغ التعبير عن ذلك. لقد أصبح الدين أداة فعالة وحيوية من أجل تعبئة الجماعة للدفاع عن نفسها في مواجهة الآخرين. ومن يحاول الغوص أو التوسع والتعمق في دراسة الأديان سيجد أمامه تنوعا في الآلهة يقترب كثيرا من واقع حياة ومعيشة هذه المجموعة أو تلك الفئة الاجتماعية من السكان. وإذا كانت هناك آلهة غاضبة ومتعالية وقاسية على البشر، فقد كانت هناك أيضا آلهة حانية على البشر ورحيمة بهم وقريبة منهم. وتجد هذه الفكرة واقعها في الطبيعة التي صورها الجمهور للآلهة أنو وأنليل من جهة، ولإله انكي من جهة أخرى بالنسبة إلى بلاد ما بين النهرين.

فعند دراسة الديانات القديمة في هذه المنطقة من العالم يجد الإنسان أمامه بعض الأسس المشتركة كما يجد بعض الفوارق المهمة. فالديانة الفرعونية في مصر، التي استندت إلى ما أوجدته حياة وظروف عمل ومحيط وخصوبة خيال وتصورات الإنسان الفرعوني والمجتمع في ظل دولة مركزية واحدة يقودها الملك أو الفرعون، حيث لم تعرف مصر حينذاك تلك الموجات البشرية العديدة ولا الدويلات المتعددة المتجاورة التي عرفها وادي الرافدين أو ميسوبوتاميا، وبالتالي، كانت للفراعنة ديانة واحدة متميزة بذاتها ولها خصائص معينة بالارتباط مع وجود دولة مركزية واحدة وملك واحد، كانت تختلف عن الديانات العديدة في وادي الرافدين، تلك الديانات الميسوبوتامية (ما بين النهرين) المتداخلة والمتفاعلة في ما بينها بحيث كان يصعب التمييز بينها، إذ كان ما هو مشترك بينها أكثر بكثير مما هو مختلف فيها. إضافة إلى اعتماد الأكديين والبابليين على ذات الآلهة الأساسية للسومريين مع منحهم أسماء إضافية محلية أو أسماء مزدوجة أو أن بعضها قد اعتبر ابنا أو أبا أو زوجا أو زوجة للبعض الآخر. وفي هذا الصدد يشير أكثر من باحث في أوضاع وحضارات وأديان تلك الشعوب إلى التفاعل والتشابك بين الديانة السومرية "غير السامية" - أو "الهندو-آرية"، كما يراها البعض من الباحثين دون أن تكون هناك أدلة كافية

تثبت أن السومريين ليسوا من أصل بلاد ما بين النهرين، أو أن هذا التقسيم إلى ساميين وآريين مقبول أصلاً - وبين الديانات "السامية" كالأكدية أو البابلية والآشورية والكلدانية. والفارق الآخر الذي جرى تشخيصه من قبل الباحثين في هذه الديانات يمكن في أن آلهة الفراعنة كانت ذات نمط إيجابي في الغالب الأعم، ولكن لم يعن هذا أنها لم تمتلك آلهة أخرى مثل آلهة الحرب والموت والأمراض... الخ. ونعني بآلهة النمط الإيجابي تلك التي تقترب بالخير والدفء مثل إله الشمس المشرقة دوماً، وآلهة الخصب والنماء والخير، إنها الآلهة التي تجسد الظروف الطبيعية المناسبة، ومنها المناخ الجيد، التي كانت وما تزال تميز هذه المنطقة. وفي ضوء ذلك فإن القرابين أو الضحايا التي كانت تقدم للآلهة كان يراد بها الحصول على المزيد من ذلك الخصب والنماء والخير. وكلما كان المجتمع يبتغي غلة أوفر وغنى أكبر وسعادة أكثر كان عليه أن يزيد من القرابين التي يقدمها للآلهة. في حين كانت آلهة منطقة وادي الرافدين تمثل القوى المتنوعة والمتضاربة والمتصارعة للطبيعة، تمثل القوى الخيرة والقوى الشريرة في آن واحد، بسبب خصائص الطبيعة والمناخ والفيضانات التي كانت تواجهها شعوب منطقة ميسوبوتاميا وما جاورها⁽⁹⁾.

وكانت القرابين أو الضحايا التي تقدم للآلهة في هذه المنطقة ذات اتجاهين، أحدهما يستهدف الحصول على مزيد من الخير والنماء والصحة والسعادة، والآخر يطمح إلى إيقاف الشر أو الجذب والبؤس أو الأمراض أو مختلف الآفات. فالرؤية للآلهة كانت متباينة والعبادة كانت للقوتين، لقوة الخير من أجل المزيد من العطاء والخصب والنماء، ولقوة الشر من أجل إيقاف أو تخفيف وتقليل أفعال الطبيعة وعواقبها المدمرة والمهلكة للبشر. لقد كان الحب والخوف متلاحمان مع بعضهما في تصورات وأحلام وانفعالات وسلوك الإنسان وفي التصرفات اليومية للمجتمع الميسوبوتامي. فحب الشمس بضيائها ودفئها والروعة التي تسبغها على مكونات الطبيعة الأخرى من جهة مثلاً، والخوف من العواصف والرياح والفيضانات والزلازل وانحباس الأمطار أو الجذب وما يرتبط بها من عواقب الموت والمرض أو الخراب وخسارة المزروعات أو القحط العام من جهة أخرى، كانا يشكلان قاعدة أساسية من

(9) Hahn, Istvan Dr .Goetter und Voelker .Budapest .Corvina Buecher .1977 .S.108/109.

قواعد العبادة وأسباب التقديس والاحترام من جانب الشعوب في تلك العصور. وهي ما تزال قائمة حتى الآن، رغم وجود بعض الاختلاف في الرؤية للآلهة وفي نوع التصرف لنسبة غير قليلة من البشر في أرجاء العالم. أي أن الآلهة القديمة لدى السومريين والأكديين والبابليين وكذلك لدى الآشوريين والكلديين لم تكن آلهة خير فقط، بل آلهة شر أيضا، وبالتالي فقد كان على الرعية تقديم آيات التقديس والاحترام والقربان لا إلى آلهة الخير فحسب، بل وإلى آلهة الشر أيضا. فالقربان التي كانت تقدم لإلهة الخصب، عشتار (إنانا)، كانت تعني في الوقت نفسه قربانا لمنع الجذب عن الناس بمساعدة الإلهة عشتار. وتعتبر ملحمة جلجامش البابلية عن ذلك التلاحم في طبيعة الآلهة أيضا وفي سلوك جلجامش المتعالي والاستبدادي ذاته. ويبدو الاختلاف أكثر وضوحا بين الديانة الفرعونية والديانات الإيرانية القديمة، وخاصة الزرادشتية في عهد الإخمينيين قبل الميلاد أو الساسانيين بعد الميلاد. فالديانة الإيرانية ميزت بشكل حاد وصارم بين آلهة النور وآلهة الظلام وفصلت بينهما ودعت إلى عبادة إله الخير أهورا مزدا (Ahura Mazda) باعتباره إله الخير والحقيقة والحكمة، ورفض عبادة إله الشر أهريمان (Ahriman) ولفظه ورفضه أصلاً واستنكار أفعاله^(١٠).

وكانت الرؤية الإيرانية أكثر حدة في التمييز والفصل بين قوى الخير وقوى الشر - وبالتالي وبين آلهة الخير وآلهة الشر أو بين قوى الخير وقوى الشر - من الرؤية في ميسوبوتاميا كلها، ولكنها كانت أكثر بعدا وأشد تمايزا عن الرؤية الفرعونية للآلهة ودورها ومهامها مثلاً. عدا ذلك فقد كانت الديانة المصرية ذات مادة جنازية اهتمت بإقامة القبور والأهرامات والموميات، أي الاهتمام بالحياة الأخرى والصعود إلى السماء. وفي ضوء ذلك أقيمت مواد أخرى اختلفت عن مواد بناء دور السكن الاعتيادية وبضخامة غير اعتيادية قادرة على الصمود لعوادي الزمن^(١١).

وهذا هو أحد الأسباب المهمة التي حافظت على استمرار وجود تلك الإهرامات

(١٠) بارندر، جيفري (Geoffrey, Parrinder). المعتقدات الدينية لدى الشعوب.

ترجمة: د. إمام عبدالفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة ١٧٣. تصدر عن المجلس

الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت. ١٩٩٣. ص ١١٥.

(١١) نفس المصدر السابق. ص ٣٩.

والمقابر والموميوات المدفونة فيها. في حين لم تبرز مثل هذه الظاهرة في حضارة وادي الرافدين بشكل مستمر، رغم إنها اهتمت بإقامة المعابد والزقورات العالية التي كانت ترمز ربما إلى موقع مميز ينسجم مع سمو الآلهة وحسن استقبالها في الحياة الدنيا ذاتها، إضافة إلى أنها تجسد محاولة للتقرب من الآلهة وهي في الأعلى. وجدير بالإشارة أن الملوك السومريين كانوا يدفنون بعد موتهم مع أسلحتهم وجنودهم (الحرس الخاص) وخبولهم وأغلى ما يملكون في مقبرة جماعية، كما تشير إلى ذلك الحفريات الأركيولوجية في أور، أو كما يمكن أن تدلل على ذلك المقابر الجديدة التي اكتشفت في (أم العقارب) جنوب العراق حيث كان موطن السومريين^(١٢).

واستنادا إلى واقع التفاعل بين الشعوب "السامية" و "الهندو-آرية" في الجانب الحضاري العام وفي الديانة بشكل خاص يمكن الإمساك ببعض خيوط التماثل والتقارب الواقعي بين الديانة الأيزيدية من جهة، والديانات السومرية والبابلية والأكدية والآشورية والكلدانية من جهة أخرى، أو بين الأيزيدية والزرقانية، أو فيما بعد بين المزدكية والمانوية، أو بين المانوية والمشرائية القديمة، أو بين الأيزيدية والمشرائية، أو بين الأيزيدية والمانوية أو غيرها من الديانات القديمة كالديانات الهندية والديانة الفرعونية التي كانت قائمة في المجتمعات الرعوية ومن ثم الزراعية^(١٣).

إذ إن هذه الديانات كانت تمتلك من حيث المبدأ نفس الأساس المادي الذي اعتمد ظواهر الطبيعة مشفوعة بجملة كبيرة من نتائج وعواقب وأثار فعل الطبيعة التي كانت تخدم الإنسان أو تتسبب في هلاكه وفي تدمير ما حوله. إضافة إلى الأساطير والملاحم أو الحكايات والخرافات التي كانت تتناقلها الشعوب مكتوبة أو مسموعة أو محفوظة في الصدر، وكذلك الحكايات عن الخوارق والمعجزات من أعمال الأولياء الصالحين والأبطال المحليين. وهي حكايات نشأت واغتنت بصور ومضامين جديدة مع

(١٢) بغداد. صحيفة حركة الوفاق الوطني العراقي. جريدة شهرية. العدد ٤٣٥. تشرين

الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، ص ١٣.

(13) Taufiq Wahby: The Remnants of Mihrasim in Hara and Iraqi Kurdistan and its Traces in Yazidism. The Yazidis are not Devil Worshippers, London, 1962.

تطور تلك الشعوب والأديان من جهة، ونتيجة احتكاك جديد مع أديان أخرى سبقت أو أعقبت ظهورها وتناقلتها تلك الشعوب دون التمييز بحقيقة تلك المعجزات والكرامات. وهذه الظاهرة المهمة لا تقتصر على الأديان القديمة وآلهتها وما سجل في مقدمات الشرائع والقوانين التي سطرت حينذاك وفي بعض بنودها، بل نجد أيضاً في الحكايات والأساطير المروية والمسجلة التي تتحدث عن معجزات الأنبياء والأولياء والتي ثبتت في ما يطلق عليه بالكتب "السماوية" أو الأديان الكتابية ابتداءً من العهد القديم ومروراً بالإنجيل وانتهاءً بالقرآن. فهي من حيث المبدأ ذات أساس واحد وغايات واحدة ورؤية فلسفية واحدة، كما إنها كانت وما تزال تعبر عن حاجات معينة لدى الإنسان والمجتمع، إضافة إلى هدف الفئات الحاكمة لتنظيم المجتمع وعلاقاته الداخلية ومع المجتمعات الأخرى وفق مستويات التطور الاقتصادي والاجتماعي في كل منها. وكان النور والظلام، والليل والنهار، والشمس والقمر، والخير والشر من أبرز رموز العبادة حينذاك. وبنظرة سريعة في "كتاب الملل والنحل" للإمام محمد بن عبدالكريم الشهرستاني مثلاً، أو عند العودة إلى الكتب الدينية المقدسة لتلك الديانات، سنعثر على ضاللتنا التي تبين الدور الكبير لظواهر الطبيعة مثل النور والظلام أو القيم الأخلاقية مثل الخير والشر أو مفاهيم مثل الصالح والطالح في أديان تلك العهود (١٤).

ويتجلى ذلك أيضاً في الوصايا العشر المعروفة، وهي ما تزال سارية حتى الآن وستبقى طويلاً أيضاً. ويكفي أن نقرأ أسطورة الطوفان السومرية (أو البابلية) وانتقالها إلى الشعوب الأخرى وإعادة روايتها وكتابتها وفق أسلوب وشخص تنسجم مع واقع وتراث وحاجات تلك الشعوب. فالطوفان أسطورة شعبية تناقلتها الشعوب، ولكنها لم تكن مجرد خيال، إذ أنها لا تخلو من واقعية معينة. فلا بد من أن شعبا أو أكثر من شعوب الأرض قد تعرض لفيضانات هائلة ومدمرة أتت على الأخضر واليابس وقتلت أعدادا كبيرة من البشر والحيوانات بحيث رسخت في ذاكرة ووجدان سكان ذلك الزمان فسجلوها وتناقلوها وأضافوا عليها من خيالهم ما يزيد من وقعها وتأثيرها على الناس، وما يساعد على ربطها مع قيم الخير والشر

(١٤) محمد عبدالكريم الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، ١-٢، تخريج: محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، منشورات الشريف الرضي.

مثلاً (١٥)، خاصة في عهود كانت هناك دولة المدينة ذات عدد محدود جداً من السكان لا يزيد في أقصى الحالات عن بضعة آلاف. وإذا ما قرأ الإنسان عن هذا الطوفان في الكتب "السماوية" أو الجماعات الكتابية لوجد أنها تؤكد حصول الطوفان وتسعى إلى تكريسه باعتباره حالة وقعت فعلاً، ولكنها تختلف في طريقة

(١٥) وسجل القس بولص في كتابه عن "الديانة اليزيدية" عن هذه الظاهرة حين طرح على نفسه سؤالاً وأجاب عنه وفق ما جمعه من معلومات عن آراء الأيزيدية حول بعض تلك القضايا. ويعود عمر هذا الكتاب إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يطرح القس بولص سؤالاً وكأنه يخاطب أيزيدياً، ويوجب بنفسه عنه كما يلي:

"خبرني رجاء: س: أين صنع نوح السفينة؟

ج: صنعها في قرية عين سفني قبيل الطوفان بستين وقد ضحك منه أول الأمر أولاد حواء حتى جاء الطوفان وأبادهم مع باقي المخلوقات. لقد طفت السفينة على الماء حتى اصطدمت بجبل سنجار وخرقت فتلوت الحية وسدت الخرق". راجع في هذا الصدد: حبيب، جورج. اليزيدية بقايا دين قديم. بغداد. ١٩٧٧.

وفي كتاب مصحف ره ش المقدس لدى الأيزيديين جاء بصدد الطوفان ما يلي:

"وأعلموا أن الطوفان الذي صار في وقت نوح صار طوفان آخر بهذا العالم. وأمتنا اليزيدية تناسلت من نعمي لوجه الملك المكرم للسلام الذي يدعى عندنا ملك ميران. وباقي الطوائف تناسلوا من حام الذي أهان أبيه. أما السفينة فقامت في عين سفني، تبعد عن الموصل خمسة فراسخ. وسبب الطوفان الأول هو من أجل استهزاء الجنس البشري الخارجي كاليهود والنصارى والإسلام وغيرهم الذين تناسلوا من آدم وحواء، لا مثلنا نحن الذين تناسلنا من آدم فقط. كما عرفناكم. أما الطوفان الثاني، فجاء على أمتنا اليزيدية أيضاً، فلما تعالت المياه وطافت السفينة فوق الماء صارت فوق جبل سنجار، فصدمت بحجر، فنقبت فتكعوكت الحية وسدت الثقب. فمضت السفينة وأتكت على جبل جودي، (...) ومن الطوفان للان سبعة آلاف سنة، وبكل ألف سنة ينزل إله واحد من الآلهة السبعة، يصنع لنا آيات وقوانين وشرائع ثم يصعد إلى مكانه. نزوله يصير عندنا، لأن جميع المكانات المقدسة هي عندنا. وفي هذا الزمان نزل الله عندنا أكثر من الزمان الماضي، وثبت لنا الأولياء وكان يكلمنا بلسان كردي". راجع فيه الصدد: الأحمد، سامي سعيد د. اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم. مصدر سابق. ص ٢٦٧/٢٦٨.

عرضها للظوفان وفي الشخصوس والمواقع وتفصيل الوقائع وبعض النتائج التي نشأت عنه. فهي تختلف عن الطوفان الذي تتحدث عنه ملحمة جلجامش^(١٦)، كما

(١٦) جاء في العمود الثالث والعمود الرابع من اللوح الحادي عشر من النص الكامل للملحمة "هو الذي رأى:

"وما أن لاحت تباشير الصباح، حت علت الأفق غيمة كبيرة سوداء، يجلبجل في وسطها صوت "حدد" يسبقها شوللات وخانيش، نذيران عبر السهول والبطاح. اقتلع إربجال الدعائم. ثم أتى نورنا وفتح السدود. رفع الأنوناكي مشاعلمهم، حتى أضاء وهجها الأرض. بلغت ثورة حدد تخوم السماء، أحالت كل نور إلى ظلمة، والأرض الفسيحة قد تحطمت كما الجرة. ثارت العاصفة يوماً كاملاً. تزايدت سرعاتها حتى حجبت الجبال. أتت على الناس، حصدتهم كما الحرب. عمى الأخ عن أخيه، وبات أهل السماء لا يرون أهل الأرض. هرب جميعهم صعدا نحو سماء أنو. ناحت سيده الألهة، ذات الصوت العذب "لقد آلت إلى طين تلك الأيام القديمة، لأنني نطقت بالشر في مجمع الألهة. فكيف نطقت بالشر في مجمع الألهة؟ كيف أمرت بالحرب تحصد شعبي، تدمر من أعطيهم، أنا، الميلاد؟ وما هم يملأون البحر كصغار السمك". بكى معها آلهة الأنوناكي. تهالكوا وانحنوا يبكون، وقد حجبا أفواههم بأيديهم. ستة أيام وست ليال، الرياح تهب، والعاصفة وسيول المطر تغطي على الأرض. ومع حلول اليوم السابع. العاصفة والظوفان التي داهمت كجيش، خفت شدتها، هدأ البحر وسكنت العاصفة وتراجع الطوفان. فتحت النافذة، فسقط النور على وجهي. نظرت إلى البحر، كان الهدوء شاملاً. لقد آل البشر إلى طين. كان ال... بمحاذاة السقف. تهاكت، أنحيت أبكي، وقد أغرقت الدموع وجهي. ثم تطلعت في كل الاتجاهات، مستطلعا حدود البحر. على بعد اثنتي عشر ساعة مضاعفة، انبثقت قطع من اليابسة. واستقرت السفينة على جبل نصير. جبل نصير، أمسك بالسفينة، منع حركتها. أمسك الجبل بالسفينة، منع حركتها، يوماً، وثانياً. أمسك الجبل بالسفينة، منع حركتها، يوماً ثالثاً، ورابعاً، أمسك الجبل بالسفينة، منع حركتها، يوماً خامساً وسادساً. وعندما حل اليوم السابع، أتيت بحمامة وأطلقتها. طارت الحمامة بعيداً ثم عادت إلي لم تجد مستقراً فعادت، ثم أتيت بسنونو وأطلقتته، طار السنونو بعيداً ثم عاد إلي. لم يجد مستقراً فعاد، أتيت بغراب وأطلقته. طار بعيداً. فلما رأى الماء قد إنحسر، حام وحط وأكل، ولم يعد. فاطلقت الجميع للجهات الأربعة، وقدمت أضحية. سكبت خمر القريان على قمة الجبل...." راجع بهذا الصدد: السواح، فراس. كنوز الأعماق قراءة في ملحمة جلجامش. ط١. دمشق. نيقوسيا - قبرص. سومر للدراسات والنشر. ١٩٨٧. ص ٢١٠-٢١٥.

تختلف بهذا القدر أو ذاك عن الرواية المتكررة له في القرآن أو حتى قبل ذلك في العهد القديم على نحو خاص، حيث يقدر أن اليهود قد نقلوا تلك الأسطورة من بابل إلى أورشليم (القدس) والمدن الفلسطينية الأخرى. كما انعكست في التوراة، ومن ثم في الإنجيل فيما بعد^(١٧)، سواء انتقلت شفاهاً أم كانت مسجلة بطريقة ما لم يكشف عنها حتى الآن، هذا عدا الرقم المسمارية التي أشرنا إليها في الهامش. وما لدينا من معلومات يشير إلى أن أول من سجل أسطورة الطوفان هم السومريون، ولكن هذا لا يعني أنهم لم يأخذوها عن من سبقهم من شعوب المنطقة التي لا نعرف عنها شيئاً حتى الآن. ولكن لم تبرز حتى الآن معلومات تشير إلى أن هذه الأسطورة قد انتقلت إلى السومريين من حضارة العبيد في بلاد فارس وبلاد الرافدين. وبتعبير آخر تعتبر أسطورة الطوفان حتى الآن سومرية الأصل. والمعلومات الأركيولوجية تشير إلى احتمال حصول هذا الفيضان (الطوفان) في جنوب العراق (أور)، ومنها تلك التي حدثت في الألف الرابعة قبل الميلاد^(١٨)، خاصة وأن المنطقة قد عرفت الكثير من الفيضانات، والتي ربما لم تكن بحجم التدمير الذي عرفه الطوفان الوارد في الكتابات السومرية والبابلية القديمة.

ولكن هذا التوافق أو التماثل في الأديان في مختلف المناطق لا ينفي، كما أشرنا

(١٧) علي، فاضل عبدا الواحد د. من سومر إلى التوراة. القاهرة. سنا للنشر. ١٩٩٦. ص ١٧١.

(١٨) يرد الطوفان لأول مرة في الأساطير السومرية والبابلية في بلاد ما بين النهرين. وفي عام ١٨٧٢ اكتشفت رقم مكتوبة بالخط المسماري في نينوى. وجاء الحديث عن الطوفان عند السومريين في قائمة أو ثبت الملوك حيث ميزت بين ملوك فترة ما قبل الطوفان وملوك ما بعده. وتجسد عن الطوفان في الميثولوجيا الهندية بحدود ١٠٠٠-٨٠٠ قبل الميلاد، وكذلك في الميثولوجيا الصينية. إن ما ورد في الميثولوجيا السومرية والبابلية يعتبر أقدم مما ورد في الميثولوجيا الهندية والصينية. والبعض يشير إلى وجود ارتباط بين هذه الميثولوجيات، أي انتقالها من السومريين والبابليين وعبر التوراة وغيرها إلى الهند والصين، والبعض الآخر لا يرى ضرورة وجود مثل هذا الارتباط، إذ أن الطوفان كان يحصل في مناطق عديدة من العالم حتى يومنا هذا. راجع في هذا الصدد:

Freydank .Reineke .Schetelich .Thilo .Der Alte Orient in Stichwort-en .Koechler & Amelang .Leipzig .١٩٧٨ .S .401-402.

إلى ذلك، وجود اختلافات في ما بينها سواء كان ذلك الاختلاف يمس طبيعة وأدوار ومهمات الآلهة أو الموقف من الموت والدفن ودينيا الآخرة وغيرها. إذ أن تلك الاختلافات في موقف هذا المجتمع أو ذاك إزاء الأديان والطقوس والتقاليد المرتبطة بها تعبر عن الاختلافات في مستويات التطور وفي صورة المجتمع عن نفسه، وبالتالي، انعكاسات ذلك على آلهته وطقوسه وتقاليد وعاداته وتصرفاته اليومية. حتى أن تلك الاختلافات الجزئية أو الأساسية كانت سبباً في وقوع صراعات دموية وإلى ممارسة سياسات وأساليب تعسفية شديدة اللوطة على الناس من جانب الحكام ومصادرتهم لحرية الناس وحقوقهم في المساواة والعدالة. والديانة الأيزيدية، كما تبدو لي من خلال الدراسة والإطلاع على الأديان، واحدة من تلك الديانات العريقة في القدم، كما هو حال بعض الديانات ذات النكهة الميسوبوتامية أو العراقية، مثل المانية أو المندائية، والتي يمكن من خلال التعرف عليها الحصول على صورة واقعية عن حياة الأقلية الأيزيدية، إلى جانب الجماعات الدينية الأخرى في المجتمع الكردي، أن تضيف أهمية إلى هذه المنطقة الحيوية والحساسة من العالم واهتماماً بها، رغم التغييرات غير القليلة التي طرأت على حياة ومعيشة وتقاليد وعادات هذه الأقلية الدينية. فالرابطة بين الديانة الأيزيدية والمجتمع الأيزيدي الكردي، بين الطقوس والتقاليد الدينية الأيزيدية وحياة وهموم ومشاكل وتطلعات الأيزيديين اليومية، بين واقع تطور هذه الديانة وتطور المجتمع الأيزيدي، عضوية وأساسية جداً.

الفصل الأول:

أصل الديانة الأيزيدية

تواجه الباحث العلمي في أصل وطقوس وتقاليد الديانة الأيزيدية مصاعب جملة ناجمة عن عدة عوامل رئيسية هي:

* إن هذه الديانة اعتمدت ولقرون طويلة على توارث الطقوس والتقاليد من جيل إلى جيل دون أن يتم تسجيل تلك الطقوس وأصل الديانة والسبل والتغيرات التي طرأت عليها عبر السنين. ونحن ندرك بأن دراسة هذه الطقوس والتقاليد والعادات الجارية على أهميتها، وهي آخر ما وصل إلينا من هذه الديانة وليس بدايتها والأسس التي اعتمدها والفلسفة الحياتية التي عبرت عنها والتغيرات العديدة المحتملة التي طرأت عليها.

* قلة التحريات الأركيولوجية في مناطق توطن وعيش الأيزيديين، أو المناطق التي اضطروا للهجرة إليها، إضافة إلى تعرض مناطق الأيزيديين إلى الكثير من الحروب والكوارث أو التدمير والحرق المتعمد لتلك الآثار التي ربما كان في مقدورها، لو كان قد عثر عليها، أن تساعد البحث للتعرف بشكل أدق وأقرب إلى الواقع على أصل الديانة الأيزيدية وطقوسها الأولى. ولا شك في أن باب البحث في هذا الصدد سيبقى مفتوحاً، إذ ما تزال هناك إمكانيات إجراء المزيد من التنقيب والتحري عن هذه الديانة العريقة في القدم لتأمين فهم أفضل لها ولأصولها التاريخية وتشابك علاقاتها مع الأديان والمعتقدات الأخرى.

* ولا شك في أن عدم وجود كتب دينية قديمة، سواء عدم وجودها فعلاً، أي عدم تسجيلها، أو ضياعها أو عدم الرغبة في تسجيلها أصلاً خشية وقوعها بأيدي الآخرين واستخدامها ضد الديانة أو الكهنة أو حتى ضد أتباعها. قد لعب دوراً متميزاً في هذا الواقع الصعب الذي يواجهه الباحث في دراسة مختلف جوانب الديانة الأيزيدية.

* كما أن غياب الاعتراف المتبادل بالأديان وضعف التسامح الديني بشكل عام ورفض القبول بوجود أديان أخرى أو عدم اعتراف بعض الأديان الواسعة الانتشار بحق الجماعات الدينية الصغيرة في ممارسة طقوسها وتقليدها بحرية تامة، ساهم

بقسط كبير في تشويه سمعة الأديان المختلفة أو المخالفة لدين الأكثرية أو الدين الرسمي في الدولة أو المنطقة المعنية. ويجد الإنسان هذا الواقع بوضوح كبير في كتب من حاول البحث في طبيعة وتاريخ وطقوس وعادات وتقاليده وعلاقات أتباع هذه الأديان، حيث يلتقي الإنسان بالكثير من التشويهاً والإساءات التي كانت أو ما تزال تحاول الحط من شأن هذه الديانة أو تلك بهدف تصفيتها وتحويل أتباعها إلى الديانات الأخرى. ونجد هذا الاتجاه صارخاً حقاً في الموقف من الديانة الأيزيدية. ويبدو للمتتبع أن كثرة من الكتاب المسلمين والمسيحيين، من العرب أو من غير العرب، ساهمت بقسط كبير في تشويه حقيقة الديانة الأيزيدية وطقوسها، إذ أنها بذلت الكثير من أجل إبعاد هذه الأقلية الدينية عن دينها ووضعها في خانة المسيحيين أو المسلمين باعتبارها مرتدة عن ديانتها الأصلية، أو محاولة إبعادها عن دينها وكسبها إلى الديانات التي ظهرت لاحقاً. ويفترض أن يشار هنا إلى أن الديانات القديمة في بلاد ما بين النهرين أو في أعالي الفرات كانت أكثر اعترافاً ببعضها وأكثر تسامحاً في ما بينها أو حتى أكثر قريباً لبعضها، في حين تغيرت هذه الحالة فيما بعد وأصبحت في القرون الأخيرة، وبشكل خاص بعد سقوط الدولة الكلدانية (٥٣٩ ق.م) واحتلال بابل من قبل الفرس الإخمينيين في عهد كورش، حيث برزت محاولات تريد فرض ديانة على جماعات من ديانات أخرى، ومنها مثلاً محاولة فرض الديانة الفارسية على سكان هذه المناطق والتي قوبلت بالمقاومة والرفض، ولكن لا يعني هذا إنها لم تحقق بعض النتائج التي كانت تسعى إليها.

* الدور الذي لعبته الأقلية الدينية الأيزيدية ذاتها في هذا المجال من خلال عدم كشفها عن أسرار الديانة الأيزيدية واتجاهها العام ومواقفها المختلفة وطقوسها بغض النظر عن مدى تعارضها مع الأديان والطقوس الأخرى. وكانت وراء هذه الظاهرة السلبية عوامل كثيرة بما فيها التقاليد القديمة في عدم كشف الأسرار الدينية وحصرها في طائفة الكهنة فقط، كما هو الحال في الأديان القديمة في ميسوبوتاميا، أو الخشية من القمع والإرهاب الديني الذي سلطته مجموعات غير قليلة من رجال دين الديانات المختلفة وأتباعها على الأقليات الدينية في مختلف العصور، ومنها ما تعرضت له الديانة الأيزيدية وأتباعها.

* إن استمرار وجود الديانة الأيزيدية لمئات السنين بالرغم من كل المحن والمصائب

والإرهاب التي تعرض لها أتباعها يعبر عن حقيقتين مهمتين، إذ لولاها لمات هذا الدين أيضاً كما ماتت أديان كثيرة قديمة أخرى في هذه المنطقة من العالم وخاصة بعد دخول اليهودية والمسيحية والإسلام على التوالي إليها، وهما:

١- امتلاك الديانة الأيزيدية قدرة فعلية أو ديناميكية ذاتية مغلقة على نفسها ساعدتها على البقاء والتواصل عبر الأجيال المؤمنة بهذه الديانة والتي تتجلى في استعدادها النسبي للتكيف وإجراء التعديلات الضرورية التي تسمح بها مبادئ الديانة ذاتها من جهة، والقبول النسبي بما يفرض عليها من قبل المناهضين لتلك الديانة وما لا يؤثر على جوهر الدين ذاته من جهة أخرى.

٢- ويدلل على ذلك أيضاً وجود أدعية وطقوس تشير بهذا القدر أو ذاك إلى إنها ليست قديمة حقاً وأن رجال الدين الكبار أدخلوها ضمن الطقوس والأدعية الأيزيدية في فترات مختلفة لحاجات وضرورات المجتمع الأيزيدي نفسه. ويمكن معرفة ذلك من خلال اللغة التي كتبت بها والمواقع التي تذكر في تلك الأدعية والتي لم تكن معروفة بهذه الأسماء قديماً، أو تماثلها الواضح مع أدعية أخرى لديانات أخرى.

إن هذا الغموض الكبير حول أصل الديانة الأيزيدية وطقوسها وتقاليدها وعادات الناس المؤمنين بها، والذي لم يكن سببه الأيزيديون وحدهم، بل شارك فيه مناهضي ديانتهم بشكل كبير، ساهم في بروز وتبلور ثلاث نظريات أو فرضيات متباينة حول أصل هذه الديانة ومبادئها الأساسية وطقوسها. وفيما يلي محاولة لصياغة تلك الفرضيات كما يراها الباحث.

الفرضية الأولى

تطرح هذه الفرضية على بساط البحث وجود علاقة متعددة الجوانب بين الديانات "العراقية" القديمة في العهود السومرية والآكدية والبابلية والآشورية والكلدانية من جهة، وبين الديانة الأيزيدية من جهة أخرى، باعتبار أن الديانة الأيزيدية واحدة من أقدم الديانات في هذه المنطقة الخصبة والتميزية جداً في إنتاج الديانات، رغم التغيرات والتطورات التي شهدتها هذه الديانة على امتداد القرون والعهود المنصرمة وبشكل خاص منذ الفتح الإسلامي للعراق. فالدراسات الخاصة بالديانات والطقوس والاحتفالات والأعياد القديمة والأساطير والملاحم والتراتيل والصلوات والتعاويد والاحجيات والأمثال والأقوال والرقى والتعاليم الدينية وأسماء الآلهة، وخاصة في

الديانة السومرية، تشير إلى وجود مثل هذه الصلة مع الديانة الأيزيدية في بعض طقوسها واحتفالاتها وبعض أعيادها الأيزيدية أو بعض مقاطع من تعاويدها وأدعيته^(١٩). وهو أمر ليس بالغريب بسبب وجود الجماعة البشرية الأيزيدية منذ قرون كثيرة في ذات المنطقة التي وجدت فيها بعض تلك الحضارات أو في منطقة وادي الرافدين عموماً. فطاووس ملك، الإله الواحد، ذو الثنائية في الواحد، هو الرمز الأعلى المقدس لدى الأيزيديين أينما وجدوا^(٢٠).

(١٩) كتب الدكتور خليل جندي في كتابه الموسوم "نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية" بشأن أصل كلمة أيزيدي يقول: "اكتشف مؤخراً أحد خبراء الآثار واللغات القديمة (السومرية، البابلية والآشورية) بأن كلمة [أيزيدي] - هكذا مكتوب بالحظ المسماري في العهد السومري- وهي تعني: [الروح الخيرة وغير المتلوثين والذين يمشون على الطريق الصحيح]. وحسب اعتقاده فإن تاريخ أيزيدية يرجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وهم من بقايا أقدم ديانة كردية من منطقة الحضارات العظمى في الشرق. أي المعتقدات السومرية - البابلية القديمة. ويشير الباحث إلى ثلاثة من أكبر آلهة الأيزيدية بل الأركان الأساسية في هذا الدين، جاء ذكرهم في تاريخ تلك الحضارات القديمة. الأول: هو (الشيخ شمس) إله الشمس، ويكتب بالسومرية [دينكر أوتوا] ويدعى باللغة البابلية [شماس]... والثاني هو: (الشيخ سن) إله القمر. وهو إله ميسوبوتامي يسمى [نانا] بالسومري و[سين] بالبابلي، وهو إله الخصوبة عند النساء. الثالث: هو (الشيخ آدي) إله المطر والخير والبركة. يكتب [إيم] باللغة السومرية ويلفظ بصورة مختلفة في الشرق الأوسط مثل [آدد، آدي، اودنوخ، حدد، حداد]. وكون الآشوريين كانت لهم محبة خاصة لـ[الشيخ آدي] فإنهم لم يصوروه في نقوشهم الحجرية وحسب، بل ورد عنه الكثير في كتاباتهم. ولهذا بالذات تواجد معبده في قلب آشور في لالش". راجع في هذا الصدد: جندي، خليل د. نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية. رابون. السويد. ١٩٩٨. ص ٢٠ / ٢١.

(٢٠) تجدر الإشارة إلى أن الطاووس طير غير معروف في المنطقة التي يعيش فيها الأيزيديون. ومثل هذا الواقع لا يعني أنهم لم يسمعو به أو أنه لم ينتقل إليهم من الهند، خاصة وأن الكثير من الشعوب قد اتخذت من طيور وحيوانات الطبيعة طوطماً لها في دياناتها القديمة، وأن حركة القبائل الرحل حينذاك كانت مستمرة. كما أن المنطقة التي وجد فيها على بن أبي طالب لم تعرف هذا الطير، ومع ذلك فقد سجل وصفاً بديعاً له، كما ورد في مكان آخر من هذا البحث، وفق ما هو منسوب إليه.

وهذا الإله والمعبود الواحد لا يختلف كثيراً عن الإله والمعبود الرئيسي لدى السومريين أن أو أنو (Anu، An) أو الإله نابو (Nabu) أو الإله مردوخ المقدس لدى البابليين أو الإله آشور المقدس لدى الآشوريين. كما إن احتفال الأيزيديين بأول يوم أربعاء من شهر نيسان/إبريل باعتباره عيد رأس السنة الأيزيدية يذكرنا باحتفالات البابليين بالأول من نيسان/إبريل باعتباره عيد رأس السنة البابلية. ويختلف هذا التاريخ عن موعد عيد رأس السنة لدى الفرس أو لدى الغالبية العظمى من الأكراد حيث يعتبر ٢١ آذار/مارت عيد رأس السنة لدى الفرس والأكراد معاً. ويوم الأربعاء من كل أسبوع هو اليوم المقدس لدى الأيزيديين مثلما هو الحال عند البابليين^(٢١).

ويحرم الأيزيديون الزواج يوم الأربعاء، كما هو الحال عند البابليين، باعتباره يوم زواج الأنبياء والأولياء عند الأيزيديين حالياً وربما عند آلهتهم القديمة أيضاً، ويوم زواج الآلهة والملوك عند البابليين^(٢٢).

ويشير الباحث جورج حبيب إلى "أن عيد رأس السنة البابلي هذا تقليد لأعياد قديمة سبقته تعود جذورها إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، أي أيام حكم الأمير السومري كوديا حاكم لكش حيث كانت هذه الاحتفالات تقوم في مدينة جرسو في بداية السنة وحيث كانت البلاد تحتفل بزواج الإله ننجرسو بالآلهة (باو)"^(٢٣).

ولا بد من الإشارة إلى أن شهري آذار ونيسان هما من الأشهر التي تحتفل بها الكثير من القبائل الرحل وتلك المعتمدة على الزراعة بسبب كونهما بداية الربيع وما يرتبط بهما من خير وبركة على الناس.

وعند البحث في السمات التي تميز الإله أنو السومري والإله نابو البابلي وطاووس ملك سنجد التقارب الكبير بينهم في عدة مجالات هي:

- الرمز الذي يمثله كل هؤلاء الآلهة الثلاثة بالارتباط مع قضايا التنجيم والفلك:

(21) Ilhan Kizilhan: Die Yeziden, Verlag medico international, Frankfurt/M., 1997, S. 180.

(٢٢) حبيب، جورج. البيزيدية بقايا ديانة قديمة. بغداد. ١٩٧٧. ص ١٣/١٢.

(٢٣) نفس المصدر. ص ١٤.

عطارد (٢٤).

- يوم الأربعاء وهو يوم مقدس لدى البابليين ولدى الأيزيديين في آن واحد ويرمز لكوكب عطارد الذي يرمز بدوره لطاووس ملك.

- الرمز الذي يعبر عنه عطارد "وهو شاب ممتطياً طاووساً بينما حية وببساطه لوح يقرأه، وصورته الأخرى وهي رجل جالس على كرسي بيده مصحف يقرأه، وعلى رأسه تاج وعليه ثياب خضر وصفرة (٢٥)" ومن يعود إلى الرمز المنقوش على باب لالش سيجد ما يؤكد هذه العلاقة الرمزية القديمة، خاصة وجود اللوح المحفوظ عند طاووس ملك وهو المنفذ لأوامر الله، وهو الوسيط الشفيق، وهو الذي يتصرف وفق حكمة الله على الأرض (٢٦)، إضافة إلى وجود شكل الحية على أحد جوانب البوابة.

- في آنو ونابو وطاووس ملك تتجسد الثنائية في الواحد، أي تتجسد في الإله

(٢٤) يطرح التنجيم العلاقات التالية بين الأيام والكواكب: زحل - السبت، الشمس - الأحد، القمر - الاثنين، المريخ - الثلاثاء، عطارد - الأربعاء، المشتري - الخميس، الزهرة - الجمعة. راجع في هذا الصدد: حبيب، جورج. البيزيدية بقايا ديانة قديمة. مصدر سابق. ص ١٦/١٤.

(٢٥) نفس المصدر السابق. ص ١٦.

(٢٦) كانت وما تزال الحية تلعب دوراً كبيراً في ميثولوجيا القبائل والشعوب المختلفة بمن فيهم العرب، كما تعطى أدواراً مختلفة. فهي التي تعبر عن الحكمة والدهاء، أو عن إرتباط الحياة بالموت أو عن الخير والشر في آن واحد. وجملة من الحكايات المكتوبة أو التي تتناقلها الشعوب شفاهاً حتى الآن تتحدث عن الحية بنوع من التهيب والإحترام والخوف معاً. وفي الميثولوجيا الأيزيدية تتجلى في الحية كما في طاووس ملك، القوتان. يشير الدكتور خليل جندي إلى أن الحية "منقوشة في مراقدهم (الأيزيدية) المقدسة وخاصة على الباب الرئيسي لمقر "الشيخ أدي" في جبل لالش. وتقول الأيزيدية بوجود صورتين على باب الجنة أحدهما لطير طاووس والثانية للحية". راجع: جندي، خليل د. نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية. ألمانيا. طبعة خاصة. ١٩٩٧. ص ٤٦. ونشير أيضاً إلى إن الحية لعبت دوراً مهماً في سد الثقب الذي حصل في سفينة نوح بعد اصطدامها بجبل سنجان ومنعت تسرب المياه إليها، إذ لولاها لغرقت سفينة نوح. راجع في هذا الصدد المصدر السابق، ص ٤٦، وكذلك كتاب حبيب، جورج: البيزيدية بقايا ديانة قديمة. مصدر سابق. ص ٧٧.

الواحد قوى النور والظلام، قوى الخير والشر في آن واحد.

- كما أن آنو هو إله السماء حيث تشرق منها الشمس المضيئة والدافئة والباعثة للحياة، هي ذات الشمس التي يتوجه نحوها الأيزيديون عند الصلاة.

تؤكد الدراسات التاريخية إلى أن عين سفني، حيث يقع معبد الشيخ عادي (الشيخ عادي) في وادي لالش المقدس (Lalisch) عند الأيزيديين والقريب من باعذرة في قضاء الشيخان التابع لمحافظة نينوى حالياً، هو نفس المكان الذي صنعت فيه السفينة لمواجهة الطوفان وفق الميثولوجيا الأيزيدية، كما إنها ذات البقعة التي ظهرت في أعقاب الطوفان أو بعد انحسار الماء. وهذا المكان المقدس عند الأيزيديين لا يبعد كثيراً عن موقع مدينة نمود القريبة من الموصل حيث أقيم فيها معبد الإله نابو. وبلغت الجماعة الدينية التي إقترن إسمها بنابو في القرن التاسع قبل الميلاد ذروتها حينذاك، وأطلق على معبد نابو أسم أيزيدي، أي عباد الله (٢٧). وهو الاسم الذي يطلق على الأيزيديين أيضاً. ومن الجدير بالإشارة إلى أن الإله نابو كان يحظى باحترام وتكريم الآشوريين أيضاً باعتباره ابناً لمردوخ وبنوعاً للحكمة، إضافة إلى أن في هذا الموقف من الإله نابو مراعاة لشعور البابليين (٢٨)، ويمكن أن يحمل معه روح التسامح الديني بين السكان حينذاك. ويفترض أن تحتفظ بهذه الملاحظة في الذاكرة عند البحث في موقف الأيزيديين من إبليس أيضاً ورفضهم المساس به أو الإساءة إليه بأي حال من جهة (٢٩)، واعتباره مكماً لصورة الإله ذاته (الثنائية في الواحد)

(٢٧) نفس المصدر السابق، ص ١٩.

(٢٨) نفس المصدر السابق. ص ٢١.

(٢٩) كتب الدكتور رشيد البندر حول موضوع إبليس والأيزيدية يقول: "أما تسميتهم بعيدة (أ) فتعود إلى سنة ١٧٩١م وأطلقها عليهم الوزير العثماني في العراق أحمد باشا بعد أن قتل منهم مجموعة وبعث برؤوسهم المقطوعة إلى اسطنبول. والذي اشاع هذه التسمية كشفافة وتاريخ هو الأب أنستاس الكرملي الذي ادعى الكشف عن كتابي البيزيدية المقدسين يدعى - كما يبدو - غير مقنعة. وانتشرت التسمية الأخيرة بسرعة بين أهل الديانات الأخرى، وأساسها أن الأيزيديين يرفضون الجمع بين حرفي الشين والطاء ويحرمون البصاق على الأرض علناً. ونظراً إلى عدم التمييز بين ما تعنيه التسميتان كما هو عند الأيزيدية، حكم عليهم بأنهم عبدة (أ). والحقيقة أنهم يتشبهون من أي لعنة...." راجع في هذا الصدد: البندر، رشيد د. الأيزيدية "ديانة قديمة" تأثرت بالمحيط وحافظت على هويتها. مجلة روز. العدد ٢. نيسان ١٩٩٧. هانوفر. ص ٩١.

من جهة أخرى. فصورة الإله تحمل الخير والشر في آن.

وإذا عدنا إلى الميثولوجيا والتراث السومري لوجدنا أن إنليل (Inlil) إله الأرض والهواء وهو ابن أنو أو أن إله السماء، الذي ولد من اتحاد أنو وكى إله المياه المحيطة بالأرض (Enki) وفصل بينهما. وكانت نينليل (Ninlil) إلهة الحبوب قرينة أنليل وابنتهما كان نانا (Nanna) أو (سن Sin) إله القمر (٣٠).

وفي هذا يلتقي الأيزيديون مع البابليين أيضاً حيث يقترون رمز القمر عند الأيزيديين بالشيخ سن أو الشيخ حسن الذي سنأتي على ذكره لاحقاً. كما يلتقي الأيزيديون بالبابليين في الجانب الديني أيضاً بثلاث مسائل مهمة هي:

* صيانة أسرار الديانة الأيزيدية وعدم الكشف عنها والحفاظ على طقوسها السرية التي يمارسها الشيوخ وبييرة والقوالون دون غيرهم من المريدين والتي لا يجوز البوح بها لغير المعنيين بها مباشرة. إنها تنتقل من الآباء إلى الأبناء عبر الإستظهار (٣١). وهم في هذا لا يختلفون عن ممارسات كهنة المعابد في الديانات الأخرى أيضاً التي ترفض الكشف عن أسرار دياناتها وتستخدم لغة سرية لهذا الغرض لا يفهمها عامة الناس.

* الالتزام بمبدأ الوراثية في المراكز الدينية، وهي مماثلة للكهانة عند البابليين؛

* التراتبية الدينية التي سنتحدث عنها لاحقاً مماثلة لما كان سائداً عند البابليين أيضاً.

وخلال الفترة الأخيرة كتبت بعض المقالات حول احتمال وجود علاقة بين الديانة الأيزيدية وديانة الصابئة المندائيين. وهذا الاحتمال وارد بسبب كونهما من الديانات

(٣٠) - سواح، فراس. مغامرة العقل الأول. دراسة في الاسطورة - سوريا وبلاد الرافدين. دمشق. دار الكندي. ط ٢. ١٩٨٩.

- علي، فاضل عبدالواحد د. من سومر إلى التوراة. القاهرة. سنا للنشر. ط ٢. ١٩٩٦

- بشور، وديع د. سومر واكاد، دمشق ١٩٨١، ص ١٨٣

-Istvan Hahn: Goetter und Voelker, Corvina Buecher, Budapest, 1968, S108-114.

(31) Kizilhan, Ilhan .Die Yeziden.Ftankfurt am Main.Verlag medico international.1997.S.67

العراقية القديمة التي تفاعلت في ما بينها، رغم الانغلاق الذي عرفت بهما هاتين الديانتين. (٣٢)

الفرضية الثانية

والفرضية الثانية تشير إلى أن الديانة الأيزيدية واحدة من تلك الديانات القديمة المستقلة عن بقية الديانات وربما المتحدرة عنها (أو) والمتداخلة مع العديد منها، والمستمدة منها بعض الطقوس والعادات أو حتى الأساطير والحكايات القديمة. فبعض المصادر التي بين أيدينا يشير إلى أن الموطن الأساسي للديانة الأيزيدية قد بدأ بمدينة يزد القريبة من منطقة خراسان في شرق إيران والقريبة من الحدود الأفغانية وكذلك جورجيا وأرمينيا، ويمتد عبر كردستان الجنوبية (كردستان العراق حالياً) الشمالية (كردستان تركيا) والموصل في شمال العراق حتى حلب في الشام (سوريا). ويشير بعض المصادر إلى أن أصل التسمية التي عرفوا بها منذ القرن التاسع الميلادي، أتت من هجرتهم أساساً من مدينة يزد الإيرانية التي كانت موطناً أساسياً لأصحاب الديانة الزرادشتية، كما أن بعضهم ينسبها إلى كلمة يزدان الإيرانية التي تعني الذات الإلهية أو أيزيدي أي عباد الله. وجدير بالإشارة إلى أن تاريخ الشعب الكردي يؤكد بما لا يقبل الشك بأن الأكراد قبل دخولهم الإسلام كانوا من أتباع الديانة الزرادشتية أو الميثرائية أو إنها كانت مقربة إليهم. واستناداً إلى هذا الاحتمال الواقعي في بعض وجوهه يمكن القول بأن مجموعات من هؤلاء الأكراد أو من العشائر الكردية رفضت في حينها الدخول في دين الإسلام وحافظت على ديانتها الأصلية وطقوسها القريبة من الزرفانية والميثرائية والزرادشتية، أو يمكن القول بأنها حافظت على ديانتها الأيزيدية التي ربما كانت أكثر قدماً من الديانة الميثرائية أو الزرادشتية المحافظة. وتشير بعض المصادر إلى أن الدين الأيزيدي يعتبر أكثر قدماً من الديانة الزرادشتية وأن الأخيرة انشقاق عنها بسبب التباين في الرؤية إزاء إله

(٣٢) البندر، رشيد د. الأيزيدية "ديانة قديمة" تأثرت بالمحيط وحافظت على هويتها. مجلة روضة العدد ٢. نيسان ١٩٩٧. هانوفر. ص ٨٦-٩٧.

من أجل معرفة أصل واصول ديانة الصابئة المندائيين راجع كتاب: سباهي، عزيز.

أصول الصابئة المندائيين. منشورات المدى -١٨- دراسات. دمشق. ١٩٩٦.

الفرضية الثالثة

أما الفرضية الثالثة والأخيرة فتدعي بأن الديانة الأيزيدية الراهنة كانت في الأصل واحدة من الفرق الإسلامية التي تبلورت أركانها المختلفة في العهد الأموي وتحديدًا في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثاني خلفاء بني أمية في الشام. وتستند هذه النظرية إلى تفسيرات وتقديرات بعض رجال الدين وبعض كتّاب التاريخ من المسلمين. فقد ورد مثلاً، نقلاً عن الإمام محمد بن حنبل (حوالي ٨٥٥ م) وعن الإمام أبي الليث ناصر بن محمد السمرقندي (حوالي ٨٥٣م)، بأنهما قد أفتيا بأن الدين الأيزيدي (اليزيدي) مخالف أو ضد الدين الإسلامي (٣٧).

وكتب الدكتور سامي سعيد الأحمد يقول: "إن أول ذكر لليزيدية جاء فيما نقله أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفي سنة ٤٢٩ هجرية، سنة ١٠٣٨م الذي قال بخارجيتهم" (٣٨).

وجاء في "كتاب الملل والنحل" للإمام محمد عبد الكريم الشهرستاني بصدد الأيزيديين وأصلهم بعد أن وضعهم في تقسيمه في خانة الإباضية (الخوارج) من الفرق الإسلامية ما يلي: "أصحاب: يزيد بن أنيسة؛ الذي قال بتولي المحكمة الأولى قبل الأزارقة، وتبرأ من بعدهم، إلا الإباضية؛ فإنه يتولاها" (٣٩). كما أن بعض الباحثين رد أصلهم إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (٤٠) على أساس الاسم أولاً، واعتبار "الشيخ عادي بن مسافر"، وهو أكبر شيوخهم، من أصل شامي ومولود في بعلبك، وبالتالي فهو أموي الأصل، وأنه كان من المتصوفة المسلمين قبل أن يستكمل

(37) Ilhan Kizilhan: Die Yeziden. Verlag medico international, Frankfurt/M. 1997, S.45.

(٣٨) سامي سعيد الأحمد: الأيزيدية: احوالهم ومعتقداتهم، الكتاب في جزئين، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧١، الجزء الأول، ص ٢٧.

(٣٩) محمد عبد الكريم الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، ١-٢، تخريج: محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، منشورات الشريف الرضي، طهران، ص ١٣٢.

(٤٠) سامي سعيد الأحمد: الأيزيدية: احوالهم ومعتقداتهم، الكتاب في جزئين، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧١، الجزء الأول، ص ٣٠، نقلاً عن العديد من الباحثين ومنهم:

R. H-W. Empsen: The Cult of the Peacock - Angel, London 1928.

الخير وإله الشر أو إله النور وإله الظلام. والعديد من المصادر يؤكد بأن المواطن الأصلي للديانة الأيزيدية هو منطقة كُردستان، وبالتحديد "منطقة حكارى في كُردستان الشمالية التي تقع ضمن تركيا حالياً" (٣٣).

وجدير بالإشارة إلى أن الميثرائية ديانة تشعبت بالأساس عن الديانة الزرادشتية التي ظهرت في إيران أساساً، والتي إتخذها الحكام ديناً رسمياً لهم قبل قرنين تقريباً من ظهور المسيحية، ولكنها تطعمت بطقوس وعادات مأخوذة من تراث الديانات في ميسوبوتاميا القديمة. ورغم وجود علاقة محتملة بين الديانة الميثرائية والأيزيدية، فإن الفارق الجوهرى يبرز، كما هو حال الاختلاف مع الديانة الزرادشتية، في الفصل بين آلهة النور والخبير وبين آلهة الظلام والشر، وأن إله النور والخبير ميثرا كان في صراع دائم مع إله الظلام والشر. كتب الدكتور سامي سعيد الأحمد يقول: "وقد اعتقد كاتب عراقي معاصر (٣٤) بأن الأيزيدية في الواقع ما هي إلا استمرار للدين الميثروي الذي سادت عبادته في مدينة الحضر Hatra (التي لا تبعد خرائبها كثيراً عن مواقع الأيزيديين الحالية في شمالي العراق)، وأن أهريمان كقوة شريرة قد نظر إليه بقدرسية تامة في الميثروية أيضاً" (٣٥). ويعلق بقوله على ذلك بأن هذه "النظرية تنصف بالمعقولة والفطنة ولكن من الصعب إثباتها إضافة إلى تقليلها من قوة التأثيرات الأخرى على المعتقد الإيزيدي التي صبته في قلبه الحالي" (٣٦).

ولا شك في أن هناك قواسم مشتركة بين الأيزيدية والميثروية ولكن ليس بالضرورة أن تكون الميثروية القاعدة التي انطلقت منها أو تشعبت عنها الديانة الأيزيدية. ويصعب حتى الآن إثبات العكس أيضاً.

(٣٣) القاضي، شيرزاد د. لمحة تاريخية عن تأثير الديانة الأيزيدية على نشوء وتطور الفكر القومي الكردي. روژ. مجلة ثقافية دورية تعنى بشؤون الأيزيديين. ألمانيا. مطبعة روناهاي. سبتمبر ١٩٩٧. ص ٥٣.

(٣٤) يبدو أن المقصود هنا هو السيد توفيق وهبي، (ك.ح).

(٣٥) سامي سعيد الأحمد، اليزيديون، مصدر سابق، ص ١٩.

(٣٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٠/١٩.

أسس الديانة الأيزيدية المتبعة حالياً^(٤١).

ورغم صدور دراسات كثيرة تدلل على أن الأكراد الأيزيديين لا يمتنون في ديانتهم إلى الإسلام بصلة، فأن بعض الباحثين العرب والمسلمين يصرون عبثاً على اعتبار الديانة الأيزيدية إحدى الفرق الإسلامية. وبعضهم استنتج بأن الأيزيديين هم من المسلمين الشيعة ويعود ارتباطهم إلى الإمام جعفر الصادق^(٤٢)، واعتبرهم البعض الآخر من المناوئين للشيعة باعتبارهم من أتباع يزيد بن معاوية أو من المؤيدين له^(٤٣).

والكاتب جورج حبيب يؤكد بشكل قاطع بأن الشيخ عادي بن مسافر أموي الأصل، مسلم متصوف قدم إلى بغداد من لبنان في أواخر القرن الخامس الهجري، ثم غادرها متجولاً في الصحارى والجبال حتى حطّ به الرحال في الموصل وفي غفلة من الناس استقر في الجبال الواقعة شمال شرق الموصل، أي المنطقة القريبة من وادي لالش^(٤٤). ويستند في ذلك إلى ما ذكره عنه أبن خلكان أو ما جاء عنه في كتاب بهجة الأسرار^(٤٥). إذ كتب يقول: "ويسميه البيزيديون الشيخ (عادي) ويلفظونه

(41) Frank, Rudolf Dr. Scheich "Adis" der grosse Heilige der Jezidis. Mayer & Mueller. Berlin. 1911.

يتبنى هذا الكاتب الفكرة القائلة بأن الشيخ عادي بن مسافر هو أحد الشخصيات الدينية المسلمة المتصوفة ومن أصدقاء الغزالي، وأنه كان سني المذهب، وهو الشخصية الثانية التي أدخلت الإصلاح الديني إلى الديانة الأيزيدية. واعتمد في كامل دراساته على كتب المسلمين حينذاك الذين حاولوا إبراز هذا الجانب من القضية ولم يبذلوا جهداً حياً للتحرر عن أصل هذه الشخصية أو أفكارها ومواقفها الفعلية، رغم أن هذا لا يغير من حقيقة أن هذا الشيخ قد تعرف جيداً على الديانة الإسلامية وتبحر في علومها ولكنه كان في موقع ديني آخر، من أتباع ومصلي الديانة الإيزيدية.

(٤٢) الجراد، خلف د. البيزيدية والبيزيديون. اللاذقية. سوريا. دار الحوار للنشر والتوزيع. ١٩٩٥. ص ٨.

(43) Frank, Rudolf Dr. Scheich "Adis" der grosse Heilige der Jezidis. Mayer & Mueller. Berlin. 1911.

(٤٤) حبيب، جورج. البيزيدية بقايا دين قديم. مصدر سابق. ص ٤٨.

(٤٥) نفس المصدر السابق. ص ٥٣ / ٥٤.

(شيخادي) وهو الشيخ عادي بن مسافر الأموي، قدم من بعلبك في لبنان إلى بغداد أواخر القرن الخامس الهجري، وصحب كبار رجال التصوف فيها أمثال الشيخ عبدالقادر الجيلي وعقيل المنبجي وحمام الدباس، ثم ترك بغداد وراح يتجول في الصحارى والجبال حتى أتى الجبال الواقعة شمال شرق الموصل، واستقر هناك حتى وفاته بعد أن اجتمع حوله أناس تلك المنطقة من بقايا الديانة البابلية الإيرانية التي تعتبر طاووس ملك وإيزيد أكبر شخصيتين إلهيتين^(٤٦).

إن الادعاء بأن عادي بن مسافر يعود بانتسابه إلى الأمويين لا يمكن أن يكون صحيحاً بسبب أن الأيزيدية لا تعرف الانتساب إليها من أقوام أو أديان أخرى، فهي من الديانات القائمة على نسب الدم من الأيوين فقط. فالأيزيدية والأيزيدي هما من وكّد من أيوين أيزيديين بالولادة أيضاً. وهم في الموقف من هذه القاعدة صارمون ولا يرقى لذلك شك^(٤٧).

ويصعب القبول بالافتراض الذي طرحه السيد جورج حبيب القائل باحتمال وصول الشيخ عادي "المسلم" إلى المنطقة في فترة موجات الأوبئة والطاعون والقحط أو المجاعة التي يمكن أن تكون قد أفنت سكان المنطقة في فترة قصيرة بحيث أمكن

(٤٦) نفس المصدر السابق. ص ٤٨.

(٤٧) يفترض أن نشير هنا إلى إن الحروب والغزوات التي تعرض لها الأيزيديون قد إقترنت بخطف وأسر النساء والرجال والشيوخ والأطفال، وبالتالي كان من الممكن أن يربى الأطفال على دين آخر دون أن يكونوا يعرفون ذلك بسبب بيعهم في سوق النخاسة دون الإشارة إلى منحدرهم الأساسي وبالتالي يتربون في بيوت مسلمين أم مسيحيين وعلى هاتين الديانتين. وفي حالة معرفتهم بذلك يمكن أن يعودوا إلى ديانتهم الأصلية. وفي هذه الحالة فهي ليست مشكلة بالنسبة للأيزيديين باعتبارهم من أيوين أيزيديين. ولكن المشكلة تنشأ في حالة زواج المختطفة أو المختطف بعد أن يكبرا من رجل أو امرأة مسلمة أو مسيحية. فأطفال هؤلاء لا يعتبرون أيزيديين بناءً على القاعدة المعمول بها في الديانة الأيزيدية. إن تاريخ الدولة العثمانية مليء بمثل هذه الحوادث. ولم يقتصر الأمر على الأيزيديين، بل شمل بشكل واسع المسيحيين من البلدان التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، كما أشرنا إلى ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب. وهو أمر موغل بالعنصرية والعدوانية والاضطهاد بالنسبة للأطفال والعوائل التي كانت تتعرض إلى مثل هذه الأفعال الشنيعة.

للشيخ عدي أن يدعي انتسابه للأيزيدية. إذ أن الكاتب ينهي افتراضه بقوله " ليس شرطاً أن يكون مجيء الشيخ إلى لالش قد حدث في أعقاب كارثته، ولكن هذا الاحتمال يفسر سهولة ولوجه في تلك المنطقة الكردية الغربية دون أن يتعرض له السكان كغريب متطفل" (٤٨).

ولكن اعتبار عادي بن مسافر من أهل سوريا فهو أمر يمكن أن يكون صحيحاً أو على ما يبدو صحيحاً حقاً، إذ إن الأيزيديين كانوا وما زالوا يقطنون بعض مناطق سوريا وتركيا أيضاً. كما يمكن أن تقبل فكرة أن عائلته لم تعلن عن دينها صراحة بسبب الاضطهاد الذي كانت تتعرض له العائلات الأيزيدية على أيدي السلطات أو على أيدي بعض غلاة المسلمين حينذاك. كما ليس غريباً أن يكون بين الأيزيديين المتمسكين والعارفين بأصول وأسس وتقاليدهم وطقوس الديانة الأيزيدية شخصية متميزة مثل الشيخ عادي بن مسافر متضلعة بأصول الدين الإسلامي أيضاً، إذ أن معرفة معمقة وواسعة بأصول الديانات الأخرى أو المخالفة كانت وما تزال ضرورة بالنسبة إلى رجال الدين من مختلف الأديان، إذ كانت تشكل أرضية مهمة لحوض النقاشات مع الأديان الأخرى أو من أجل إقناع أتباعهم بصواب الديانة التي هم عليها من خلال مقارنتها مع الأديان الأخرى، أو حتى من خلال الرغبة في التعرف على الأديان الأخرى. ومثل هذه الظاهرة يجدها الإنسان اليوم أيضاً بين الناس من مختلف الأديان، ولكن بشكل خاص بالنسبة للعاملين في مجال الدين أو رجال الدين أساساً الذين يسعون إلى التعرف على الأديان الأخرى والتعمق في دراستها. وغالباً ما تكون تلك الدراسة المعمقة والواسعة من أجل دحض الديانات الأخرى وإبراز نواقصها ومواطن الخلل فيها والإشارة إلى نواقصها وعدم صدقها.

وتشير الدراسات التي أنجزت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى أنهم تعرفوا على كتبها الشيخ عادي بن مسافر، ولكنها كانت قد زوّرت وسجلت بإسم أحمد بن الرفاعي، إلا أن مواقع غير قليلة لم يشطب منها الاسم تماماً أو نسي تبديله تدلل على أنها للشيخ عادي بن مسافر وليس لأحمد بن

(٤٨) حبيب، جورج. اليزيدية بقايا دين قديم. مصدر سابق. ص ٥٣.

الرفاعي (٤٩). وهذه الكتب تبحث في قضايا إسلامية كثيرة بما فيها الوصايا الخاصة بسلوك الخلفاء (٥٠).

ورغم أن هذا الادعاء غير ثابت حتى الآن، فإن احتمال صدور مثل هذه الكتابات أمر ممكن، إذا اعتبرنا الرجل قد اضطر إلى التزام الإسلام والتصوف علناً حتى نزوحه إلى مناطق الأيزيديين في كردستان أو شمال العراق، حيث أعلن مجدداً تمسكه بدينه الأصلي، الدين الأيزيدي.

إن مراجعة ما كتب حتى الآن حول الديانة الأيزيدية تسمح لي بتأييد الافتراض الأول والقسم الأول من الافتراض الثاني باعتبارهما أقرب إلى الحقيقة والوقائع التاريخية والتحليل العلمي والمنطقي لبنية وأسس الديانة الأيزيدية. فواقع هذه الديانة وطقوسها المختلفة بعيد كل البعد عن الديانة الإسلامية كما هو وارد في الافتراض الثالث (٥١).

(٤٩) في عام ١٩١١ أعاد الدكتور رودولف فرانك نشر قصيدة وجدت في الكتاب الذي وضع اسم أحمد بن الرفاعي عليه، والذي كما يرى الدكتور فرانك أنه يعد من كتابات الشيخ عادي بن مسافر. راجع الملحق.

(50) Frank, Rudolf Dr. Scheich "Adis" der grosse Heilige der Jezidis. Mayer & Mueller. Berlin. 1911. S.10-43.

(٥١) أشرنا في مكان ما إلى أن الأيزيدية إتهموا بكونهم من عبدة إبليس. وهذا الملك لا يرتبط عند الأيزيدية بتلك السمات السلبية التي يحاول المسلمون أن ينعتوها به أو يصفونها عليه، باعتباره رفض السجود لله في وقت كان الأله قد طلب من ملائكته عدم السجود إلا له. وقد ورد في نهج البلاغة المنسوب لعلي بن أبي طالب بشأن عبدة الشيطان قوله: " إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم، ودب في حجورهم، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم فركب بهم الزلل وزين لهم الخطل، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه". راجع: علي بن أبي طالب. نهج البلاغة. ط ١. بيروت. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ١٩٩٣. ص ٦٢.

يذكر ابن أبي الحديد في كتابه "شرح نهج البلاغة بقوله: "وكان في المسلمين - ممن يرمى بالزندقة - من يذهب إلى تصويب إبليس في الأمتناع من السجود، <

ولا يغير من هذه الحقيقة وجود بعض الطقوس المتقاربة أو الدخيلة أو التي أضيفت إليها عبر القرون المنصرمة من العيش المشترك مع المسلمين الأكراد والعرب والأتراك، فمثل هذا التقارب نجد في جميع الأديان تقريباً سواء بصورة طبيعية أو تحت الضغط أو الخوف من الاضطهاد، كما هو الحال مع تبني الأيزيدية ليوم الجمعة

> ويفضله على آدم، وهو بشار بن برد المرعث، ومن الشعر المنسوب إليه:

النَّارُ مشرقة والأرض مظلمة

والنَّارُ معبودة مذ كانت النَّارُ

وكان أبو الفتح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ، وهو أخو أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي، قاصاً لطيفاً وواعظاً مفوهاً، وهو من خراسان من مدينة طوس، وقدم إلى بغداد، ووعظ بها، وسلك في وعظه مسلكاً منكراً، لأنه كان يتعصب لإبليس، ويقول: إنه سيد الموحدين، وقال يوماً على المنبر: من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق، أمر أن يسجد فأبى:

ولست بضارح إلا إليكم

وأما غيركم حاشاً وكلاً

راجع: ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني. شرح نهج البلاغة. الجزء الأول. بيروت. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ١٩٩٥. ص ٨٦.

ولم يرد في نهج البلاغة أو في كتاب شرح نهج البلاغة لأبي الحديد المعتزلي ما يشير إلى وجود علاقة بين الأيزيدية وهذه المسألة. ويذكر أبي الحديد المعتزلي في مكان آخر من كتابه "شرح نهج البلاغة: في موضوع [كيف ابتدأ خلق البشر] ما يلي: "وأعلم أن الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان، فذهب أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى مبدأ البشر من آدم، الأب الأول... أما المجوس فلا يعرفون آدم، ولا نوحاً ولا ساماً، ولا حاماً، ولا يافث، وأول متكون عندهم من البشر البشري المسنى "كيومرث"، ولقبه "كوشاه" أي ملك الجبل، لأن "كو" هو الجبل بالفهلوية، وكان هذا البشر في الجبال... وقيل: تفسي "كيومرث": حي ناطق ميت. قالوا وكان قد رزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأغمي عليه، ويزعمون أن مبدأ تكونه وحدوثه يزدان - وهو الصانع الأول- عندهم- فكر في أمر أهرمن، وهو الشيطان عندهم - فكرة أوجبت أن عرق جبينه، فمسح العرق ورمي به، فصار منه كيومرث...". وفي هذا لا يظهر ما يوحي بعبادة المزدكية (الزرادشتية) للشيطان أو إبليس. ويرد هنا إسم يزدان التي يربطها بعض الباحثين بالأيزيدية، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

باعتباره يوماً مقدساً لديهم كما هو الحال عند المسلمين، في حين أن يومهم الأسبوعي المقدس هو يوم الأربعاء كما مر بنا سابقاً، وهم ما زالوا يحتفلون به بطريقة ما في داخل العراق، كما يحتفل به الأيزيديون في الخارج. وقد تمكنت تقاليد الحفاظ عن ظهر غيب والممارسة السرية لجملة من تلك التقاليد والطقوس أن تبقى في ذاكرة الجماعة الدينية الأيزيدية. وهذا الأمر ينطبق على عدد من الظواهر الأخرى التي أجبر عليها الأيزيديون وخاصة في فترة الاحتلال العثماني لهذه المناطق. ومن متابعة تاريخ هذه الديانة الضاربة بالقدم يستنتج المرء بأن محاولات إعادة أصلها إلى الدين الإسلامي لا تخرج عن كونها عملية تعسفية أو قسرية مقصودة تريد بإصرار تشويه سمعة الأيزيديين والإساءة إلى ديانتهم وأتباعها، وبالتالي تأجيج غضب وحقد المسلمين ضدهم باعتبارهم من الكفرة المرتدين الذين خرجوا عن الدين الإسلامي، أو اعتبارهم من أتباع يزيد بن معاوية الذي كان مسؤولاً عن المجزرة التي نظمت لعائلة الحسين وصحبه والتي أدت إلى استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب والكثير من أفراد عائلته وصحبه في كربلاء وسبي النساء والأطفال. وبالتالي تحميل الأيزيديين مسؤولية تلك المجزرة أو النظر إليهم باحتقار غير مبرر وغير مقبول أصلاً. وكانت الفتاوى الدينية العثمانية الخاصة بتكفير الأيزيديين وحل دمهم مستندة بالأساس إلى هذه الحجج الواهية والمخالفة للوقائع والمبنية على تمييز ديني متعصب اشتهر به الحكام العثمانيون على نحو خاص (٥٢)، وتحلى ذلك لا في موقفهم من الأيزيدية فحسب، بل ومن المسيحيين عموماً ومن الأرمن على نحو خاص، إذ يصعب على المرء أن ينسى الجرائم البشعة التي ارتكبت بحق الأرمن في أوائل هذا القرن والتي أودت بحياة عشرات الألوف منهم (٥٣).

وكما يبدو لي فإن الفرضيتين الأولى والثانية تستندان إلى أرضية أكثر صلابة وواقعية في تشخيص أصل الديانة الأيزيدية علماً بأن الدين الإسلامي، وقبل ذلك الدين المسيحي قد أثرا بهذا القدر أو ذاك على بعض الممارسات في الديانة الأيزيدية. فمنذ دخول المسيحية إلى المنطقة أولاً، ثم الفتح والاحتلال الإسلامي في

(٥٢) نفس المصدر، الجزء الثاني، ص ٢٠٨-٢١٢ .

(٥٣) غازاريان، هايكازن. وثائق تاريخية عن المجاز والأرمنية عام ١٩١٥. ترجمة نزار خليلي. سلسلة دراسات ووثائق المجاز الأرمنية. دار الحرية للنشر والتوزيع.

حلب/سوريا. ط ١، ١٩٩٥.

النصف الأول من القرن السابع الميلادي. ثانياً تعرض أتباع هذه الديانة إلى مصاعب جمة تختلف عن المتاعب التي عانت منها بسبب تصرفات أتباع ديانات مقاربة لها عندما كانت تلك الديانات تعتبر ديانات رسمية لدول معينة، أي عندما يتداخل أو يتشابك الدين بالدولة، كما حصل في عهد الساسانيين مثلاً حيث كانت المزدكية (الزرادشتية) تعتبر الديانة الرسمية للدولة. ولم يحصل هذا التطعيم وفق رغبات وإرادة أهل هذه الديانة بقدر ما كانت محاولة للخلاص من الضغط والإرهاب والاضطهاد الديني والسعي الذي بذله الحكام لإجبار الناس الأيزيديين قسراً على الدخول إلى الديانة المسيحية أو الديانة الإسلامية.

وتقدم الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية عشرات بل مئات الأدلة على استفادتها وأخذها للكثير من الحكايات والأساطير أو الملاحم وكذلك الطقوس والتقاليد من الديانات القديمة التي ما تزال تمارس حتى يومنا هذا. وهو أمر طبيعي وناشئ عن تفاعل الثقافات والحضارات، بما فيها الأديان. وبهذا الصدد يشير أحد الباحثين الأيزيديين الشباب إلى أن الأقلية الأيزيدية كما هو حال بقية الأكراد، قد قاومت في البداية الفتح الإسلامي وخاضت معارك غير قليلة ضد الفاتحين والمحتلين الجدد. إلا أنها اضطرت أخيراً إلى الاستسلام. ولكن هذا الاستسلام لم يشمل الجانب الديني، إذ أن الأكثرية رفضت الانخراط في الإسلام. وجاء نقلاً عن كتاب البلاذري "فتح البلدان" ما يلي: "جاء الإسلام إلى كردستان بطريقتين السيف والقرآن وأرغمونا على الأسلمة. وقد هلك منا عدد غفير أثناء المقاومة. لو قرأت كتاب البلاذري فتح البلدان تجد ذكر حملات الجيوش الإسلامية على شعب كردستان وكيف إن الأكراد قاتلوا للحفاظ على معتقداتهم. وأشار المؤلف إلى الموصل وإلى باعذرة عاصمة شيخان ويقول: عندما وصلت جيوشنا إلى الموصل تمكنا من عبور نهر دجلة بعد معركة ضروس واتجهنا نحو داسن التي قاومتنا بضراوة فأسلم البعض وقبل الآخرون دفع الجزية. كان عياض بن غنم قائد الجيوش الإسلامية والتقى بسكان داسن. وهؤلاء وجهوا إليه السؤال، لماذا تعاملنا معاملة غير المؤمنين نحن نؤمن بالإله الأوحده. هنا أرسل القائد الإسلامي إلى الخليفة عمر يطلب النصح فكان جواب الخليفة عمر عاملهم معاملة أهل الكتاب. الغالبية دفعت الإتاوات والبعض الآخر هاجر دياره ولم يسمح له بحمل ممتلكاته، هاجر البعض لكي ينقذ دينه (٥٤)".

(٥٤) بيره دس. لقاء مع مشقفي اليزيدية. دهوك. مجلة لالش. العدد ٥ / ١٩٩٥،

ص ١٢٤ / ١٢٥.

ومن الجدير بالإشارة إلى أننا لم نعثر على مصدر آخر يشير إلى فتوى عمر بن الخطاب، إذ أن الاعتراف بالأيزيدية على أنهم أهل كتاب سماوي، يعني اعتبارهم من أهل الذمة. وحتى الآن لم يتم التدليل على أنهم كانوا يملكون كتاباً في فترة خلافة عمر بن الخطاب على المسلمين. إذ أن المعلومات المتوفرة حتى الآن تشير إلى أن كتب الأيزيديين المقدسة قد وضعت في فترة لاحقة، أي بعد بروز شخصية شيخادي، إذ أنه هو الذي قام بوضعها، وربما بتعبير أدق قام بتسجيلها في ضوء ما كان محفوظاً في الصدور. ولم يكن القول بالتوحيد كافياً لهذا الغرض. وإذا كانت هناك فتوى من عمر بن الخطاب بشأن الأيزيديين لما تجرأ الكثير من علماء الدين المسلمين إصدار فتاوى ضد الأيزيديين واعتبارهم من غير أهل الذمة، رغم أن الخلفاء الذين جاءوا من بعد الخلفاء الراشدين في الدولتين الأموية والعباسية، ومن ثم السلاطين في فترة العهد العثماني، كانوا على استعداد إلى إصاق مختلف التهم بالناس الآخرين سواء ممن كانوا على دين آخر أو ممن كانوا على دين الإسلام، والتي كانت تؤدي بمن يتهم بمثل إلى الموت المحتم. إن الفتاوى بتكفير الأيزيديين من جانب جملة من رجال الدين المسلمين وممارسة صنوف الاضطهاد ضدهم من جانب الحكام أو حتى مجموعات من السكان المسلمين في مناطق سكن الأيزيديين على امتداد الفترات السابقة أطلقها البعض باعتبارهم من "المسلمين المرتدين عن الإسلام"، وارتبط عند البعض الآخر بسبب كونهم من "عبدة إبليس" ورفض علماء الدين المسلمين اعتبارهم أصحاب كتاب وموحدين، وبالتالي اعتبارهم من أهل الذمة. إن الإشكالية الكبيرة عند كثرة من حكام المسلمين في تلك الفترات تبرز في غياب التسامح المطلوب إزاء الأديان والمعتقدات الأخرى، ورغبة هؤلاء بتحويل الناس إلى الدين الإسلامي بمختلف السبل. وكان هذا الموقف غير التسامحي والمتعصب أحد العوامل المهمة، إضافة إلى أسباب أخرى منها التزمّت والتعصب القومي، سبباً في نشوب الصراعات إضعاف التلاحم في المجتمعات التي كانت تابعة لتلك الدول، كما ساهمت في انهيارها سواء كانت تستند إلى أكثرية عربية - كما في الدولة الأموية والعباسية - أم على أكثرية تركية كما حصل في الدولة العثمانية. ومثل هذا الاضطهاد تعرض له المندائيون في العراق أيضاً رغم إن الإسلام قد اعترف بكونهم أهل كتاب واعتبرهم من أهل الذمة، ولكنه لم يبلغ الشدة التي تعرض لها الأيزيديون في بلاد ما بين النهرين في فترة الحكم الأموي والعباسي والعثماني على نحو خاص.

تشير الكثير من المعطيات ورغم ما يقال عن فتوى عمر بن الخطاب بأن التعامل مع الأيزيديين لم يكن سليماً إذ إن الخلل الأساسي في هذا المجال ناشئ من محاولات إجبار الأكراد - ومنهم الأقلية الدينية الأيزيدية - على تبني دين الإسلام بالقوة والعنف وتحت سيطر الفاتحين. إنها الإساءة الكبرى وجوه التمييز الديني (راجع الملحق رقم ١ في هذا الصدد).

إن البحث في أصل الديانة الأيزيدية يرشدنا إلى أن الأكراد بشكل عام كانوا على احتكاك مستمر بشعوب المنطقة، سواء كانت تلك الشعوب سومرية وأكديّة وبابلية وآشورية أم كانت من الشعوب الإيرانية والهندية بحضاراتها وثقافتها وأديانها المختلفة. وكانت كما تبدو للمتتبع ديانات متقاربة جداً. وبمرور الزمن إنقسم البعض من تلك الديانات وتباينت اتجاهاتها وبعض التفاصيل فيها. وأميل في تقديري القائم على مطالعاتي في هذا الصدد إلى أن الديانة الأيزيدية تحمل في بنيتها بذرات وطقوس وتقاليد سومرية وبابلية، كما إنها كانت فيما بعد على وفاق مع الشعوب الإيرانية في ديانتها من حيث اعتماد مبدأ الثنوية في الواحد، مبدأ تجسيد النور والظلام، الخير والشر في إله واحد. وجرى تحول متميز وتدرجي في ديانة الفرس القدامى باتجاه الفصل الكامل بين إله الخير والنور (Ahura Mazda) وإله الشر والظلام (Ahriman)، أي أن الفرس من الناحية العملية طوروا أو أقاموا ديانة جديدة هي الديانة المزدكية (الزرادشتية) التي لم تتخل عن بعض أصولها القديمة. في حين حافظت بعض القبائل الفارسية، إضافة إلى قسم من الأكراد، على المبدأ الأساسي السابق، مبدأ الثنوية في الواحد. وهذا المبدأ يفترض عبادة الإله الواحد الذي يمثل الخير والشر، النور والظلام في آن واحد، بغض النظر عن التغيرات الأخرى التي لحقت بهذه الديانة أو بالديانة المزدكية (الزرادشتية)، التي رفضت الثنائية في الواحد وفصلت بينهما في ثنوية مستقلة. وضع زرادشت تعاليمه في (أقستا) التي تعتمد تقديم "القرابين وطقوس الطهارة وتقوية النار المقدسة وما شابهها" (٥٥). إذ أن الاختلاف لم يشمل قوى الخير والشر فحسب، بل والموقف من الموت والديانة الآخرة والدفن وكذلك الموقف من ملائكة الخير وملائكة الشر والموقف من العناصر النقية المقدسة التي لا يجوز تدنيسها وهي: "السما، الشمس، الهواء،

الريح، النار والماء وما شابه أيضاً" (٥٦).

وقد حارب الزرادشتيون بتعصب شديد وعنف ضد الجماعات الأخرى التي رفضت الإقرار بالثنوية المنفصلة ودفعت أقساماً منهم للهجرة إلى الشمال الغربي من الهند في المناطق المجاورة لبومباي، ويطلق عليهم اليوم بـ"پارس Pars"، وهم من عبدة النار الذين يمارسون ترك جثث موتاهم في العراء في مكان خاص محاط بسور مرتفع يسمى "داخماس Dakhmas". ويقترب في بنائه من مدرج على شكل قمع تتوسطه حفرة عميقة. والمدرج مقسم إلى ثلاثة أقسام أو مستويات حيث تكون الدائرة العليا أو الأولى بجوار السور ومخصصة لجثث الرجال، والدائرة الثانية مخصصة لجثث النساء، أما الدائرة الثالثة القريبة من الحفرة العميقة فمخصصة لجثث الأطفال. ويقوم خدم متخصصون بإدخال هذه الجثث إلى "الداخماس"، إذ الدخول إليه محرم على غيرهم. وسرعان ما تلتهم الصقور جثث الموتى. أما عظام الموتى فنقلها في الحفرة العميقة في وسط البناء. وكان هذا التقليد سائداً في إيران قبل أن يتم التحول إلى الديانة المزدكية (الزرادشتية) (٥٧) وناشئ من الاعتقاد بضرورة عدم تدنيس عنصر التراب المقدس (٥٨).

تعرضت الديانة الأيزيدية الحالية عبر مئات من السنين المنصرمة، إلى مجموعة كبيرة من العوامل المؤثرة ساهمت في بروز جملة من الظواهر والطقوس الإضافية أو إنها اختزلت بعض ما كان فيها من طقوس وتقاليد، أو أدخلت عليها تعديلات وتحويرات أو حتى بدعاً لم تكن من أصل الطقوس الدينية لأسباب كثيرة تشير إليها لاحقاً. فرغم العزلة النسبية التي عاش في ظلها الأيزيديون، فقد شكلوا جزءاً من واقع هذه المنطقة وأثروا فيها وتأثروا بها وبأحداثها، وطراً على ديانتهم بعض التغير والتطور أو الإضافات. إلا إنها كانت عملية معقدة بطيئة ومديدة. والتغيير البطيء والتدرجي لم يسس الديانة الأيزيدية فحسب، بل شمل كذلك جميع الأديان وطقوسها العملية على نحو خاص. فحركة جميع الأديان وعبر آلاف السنين تؤكد بأنها من

(56) Tokarew, S.A. Die Religion in der Geschichte der Voelker. Berlin. Dietz Verlag. 1978. S. 458.

(٥٧) نفس المصدر السابق ص ٤٦٥/٤٦٦.

(٥٨) نفس المصدر السابق. ص ٤٦٢/٤٦٣.

(٥٥) توكاريف، سيرغي أ. الأديان في تاريخ شعوب العالم. مصدر سابق. ص ٣٦٢.

البنى الفوقية المحافظة التي تتطور ببطء شديد جدا يصعب رؤية التحولات التي تجري فيها أو تلمسها خلال جيل أو جيلين أو حتى عبر أجيال عديدة. وتعتبر الديانة الأيزيدية من بين تلك الديانات التي كان التغيير فيها أو التطور الذي صاحبها محدوداً جداً، إذ إنها استطاعت رغم كل الأجواء المعادية لها أو محاولات تشويهها والإساءة لها أن تصمد عبر المئات من السنين. ويمكن الادعاء بأن عامل الانغلاق النسبي من جهة، وعامل الاستعداد النسبي للتكيف الشكلي من أجل تجاوز المصاعب من جهة أخرى، إضافة إلى القناعة الدينية الصارمة لهذه الجماعة البشرية من جهة ثالثة، قد لعبت دورها في استمرار وجود الديانة الأيزيدية في ذات المناطق التي كانت موجودة فيها منذ مئات أو آلاف السنين. إلا إنها لم تكن دون عواقب وسلبات كثيرة على أتباعها.

دخلت على الديانة الأيزيدية العديد من تقاليد وطقوس الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية ذات الأساس التوحيدي المشترك. ورغم تلك الإضافات والتحويلات التي طرأت عليها، فإن المرء لا يخطئ في ملاحظة عمقها وارتباطها التاريخي بالعراق وإيران القديمين أو حتى بحضارات وأديان حوض نهر السند والصين. وهي ما تزال تحتفظ بجذورها الأساسي القديم الذي يعتمد ظواهر ومكونات الطبيعة، كما تمتلك بعدها الإنساني وتتحدى بروح التسامح التي توفرت في بعض الأديان القديمة. ورمز الطاووس مثلاً يعبر عن موقع الطير عموماً في نفوس الأيزيديين، الذي يعبر عن الانطلاقة نحو السماء والشمس والطبيعة والحرية من جهة، والروعة أو الجمالية التي يتميز بها هذا الطير بالذات من جهة أخرى، إضافة إلى مجموعة الألوان الجذابة التي تقترب من ألوان الطبيعة ذاتها، ألوان قوس قزح الساحرة. كما لا يستبعد أن يكون الطاووس طوعم الأيزيديين القدامى. ورغم أن الطير لم يكن من طيور المنطقة، إلا أنه من طيور الهند المعروفة وغير البعيدة عن إيران أو العراق أو كردستان. وقد أفتتن بهذا الطير البديع كثرة من البشر في مختلف أنحاء العالم. وروعة هذا الطير دفعت بعلي بن أبي طالب إلى أن يكتب فيه قطعة نثرية جميلة، كما يرد ذلك في نهج البلاغة. فضمن ما كتبه عن الطيور قوله في الطاووس: "ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناحٍ أشرجٍ قصبه، وذنب أطال مسحبه، إذا درج إلى الأنتى نشره من طيئه، وسما به مطلقاً على رأسه، كأنه قلع دارياً عنجه نوتية، يختال

بألوانه، ويمس بزيفانه، يفضي كإفضاء الديكة، ويؤر بملافة أراً الفحول المغتلمة للضراب، أحيلك من ذلك على معاينة، لا كمن يحيل على ضعيف إنساده، ولو كان كزعم من يزعم أنه يلحق بدمعة تسفحها مدامعه، فتقف في ضفتي جفونه، وأن أنثاه تطعم ذلك، ثم تبيض، لا من لقاح فحل، سوى الدمع المنجس، لما كان ذلك بأعجب من مطاعمه الغراب، تخال قصبه مداري من فضة، وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه، خالص العقيان وقلذ الزيرجد..."(٥٩).

وتشير جملة من المصادر إلى أن الديانة الأيزيدية عرفت الكثير من البدع والخرافات التي كانت فيها أساساً أو جاءتها فيما بعد والتي ما تزال عالقة بها بما فيها بعض الأساطير والخرافات والاعتقاد بالمعجزات والخوارق للأولياء الصالحين وأرباب الكرامات، أو أن بعضهم كان (أو) وما يزال يعتقد بالسحر. وهي لا تختلف في ذلك عن بقية ما يسمى "بالأديان السماوية والأديان أو العقائد غير السماوية"، (الكتابية وغير الكتابية) في هذا الصدد وفي سائر أرجاء العالم. وهي لا تنفصل عن مستوى وعي الإنسان والمجتمعات ومستوى التطور الحضاري. لقد كان العراقيون القدامى وشعوب المنطقة بأسرها تؤمن بالسحر وتمارسه وتسعى للاستفادة منه لمساعدتها في مواجهة صروف الدهر وإشكاليات حياتها اليومية وتدبير معيشتها، وكانت تستخدم التمام والتعاويد لهذا الغرض وعلى نطاق واسع. وقد اعتقد الناس حينذاك بالسحر وآمنوا بآلهة قادرة على ممارسته ومساعدتهم في حياتهم. فعلى سبيل المثال لا الحصر اعتمد الناس على الإله (ايا) باعتباره إله

(٥٩) الإمام علي بن أبي طالب. نهج البلاغة. بيروت. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ١٩٩٣. ص ٣٣٠/٣٣٩.

يواصل علي بن أبي طالب وصف الطاووس فينقل عنه قوله: "فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت: جني جني من زهرة كل ربيع، وإن ضاهيته بالملايس فهو كموشي الحلل، أو كمونق عصب اليمن، وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان، قد نطقت باللجين المكمل، يشي مشي المرح المختال، ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكا لجمال سرباله وأصابع وشاحه، فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولا بصوت يكاد يبين عن استغاثته ويشهد بصادق توجعه، لأن قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية وقد نجمت من طنوب ساقه صيصية خفية...".

الحياة والحكمة ويمتلك سلطة السحر العليا، كما انه صديق دائم للبشر وكان مستعداً للمساعدة في وقت المحن، وكان يقطاً على الدوام لكبت غضب الإله أنليل أو حقد العفاريت على البشر (٦٠).

وظاهرة الإيمان بالسحر وبوجود العفاريت واستخدام التمام والتعاويد ما تزال موجودة في العراق حتى يومنا هذا ومن قبل كثرة من السكان وخاصة في المدن الصغيرة والأرياف، ولا تقتصر على جماعة من دين معين بل تشمل أناساً من مختلف الأديان في العراق. وتشير المعلومات الواردة من العراق إلى أن نسبة غير قليلة من السكان بدأت تلجأ إلى السحرة والمنجمين تستعين بهم لمواجهة صروف الدهر الجديدة، لمواجهة النكبات والمصائب المستمرة التي ما انقطعت عن الشعب العراقي منذ عقود عديدة، وخاصة بعد وصول البعث العقلي-الصدامي إلى السلطة في العراق. كما أن الناس بدأت تلجأ إلى ممارسة الغيبيات بسبب ثقل العبء الذي تحمله جراء وجود نظام استبدادي دموي غير محسوب التصرف والعاقبة، واضطرابهم للعيش تحت وطأته.

لقد تعرض الأيزيديون في تاريخهم الطويل إلى الكثير من التعسف والاضطهاد مما أجبر الكثير من أبنائهم على الهجرة من مناطق سكنهم إلى مناطق أخرى للتخلص من الإرهاب والاضطهاد، وشكل هؤلاء ومنذ القدم جاليات صغيرة في بلدان عديدة. فدراسة تاريخ الأيزيديين يبين بما لا يقبل الشك، بأن هذه الجماعة الدينية قد تعرضت إلى اضطهاد شرس ومرير ارتبط في أحيان كثيرة بالجانب الديني وفي أحيان أخرى امتزج أو تداخل مع الجانب القومي الكردي. ويشكل الأيزيديون جزءاً عضواً من الشعب الكردي. ويذكر من يؤكد هذه الناحية بالتاريخ المشترك والأرض المشتركة واللغة المشتركة والتراث الثقافي المشترك والكثير من العادات

(٦٠) ساكن، هاري د. (Prof. Dr. Saggs, H. W. F) عظمة بابل. موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة. ترجمة د. عامر سليمان ابراهيم. جامعة الموصل ١٩٧٩. ص ٣٤٢. الطبعة الأولى للكتاب باللغة الإنجليزية ظهرت في عام ١٩٦٢ والطبعة الثانية في عام ١٩٦٦ في لندن، والطبعة الثانية هي التي اعتمدها المترجم. وأشير في الكتاب المترجم إلى أنه طبع بمطبع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر. ولم تذكر المدينة أو الدولة التي تم فيه النشر، ويبدو ان الطبع قد تم في القاهرة.

والتقاليد المشتركة، إضافة إلى العديد من الأعياد القومية والشعبية المشتركة، مع وجود الاختلاف في الديانة وجملة من الطقوس والعادات الأخرى. ولا يغير من هذه الحقيقة التباين الديني، خاصة ونحن نعرف أن الأكراد وقبل أن يدخلوا في الإسلام كانوا يعتقدون بديانة قديمة أخرى، سواء كانت مزدكية (زرادشتية) أم مقارنة لها أو للأيزيدية بالذات أو حتى أنها كانت ديانة واحدة ابتداءً. إلا أن الشواهد التاريخية تشير إلى أن الأكراد الأيزيديين قد تعرضوا للاضطهاد من قبل الأكراد المسلمين أيضاً، وعلى وجه الخصوص من الحكام والأمراء الأكراد في العهد العثماني الذي سنبحث فيه لاحقاً.

تشير أغلب الدراسات حول الأيزيديين بأنهم من الأقليات الدينية التي كانت وما تزال تحافظ على أسرار وطقوس وتقاليد دينها وترفض كشف أسرارها. والسؤال الذي يلح على متبعي تطور الأيزيديين هو: لماذا يسعى الأيزيديون إلى التستر والاحتفاظ بالأسرار والأصول الدينية في إطار مجموعتهم البشرية أو حتى لدى كبار رجال الدين فقط؟ إن تاريخ الأقلية الدينية الأيزيدية كفيل بالإجابة عن هذا السؤال، إذ يكشف لنا بما لا يقبل الشك عن عدة حقائق مهمة كانت (وما تزال) تكمن وراء هذه الظاهرة، منها بشكل خاص:

- الاضطهاد الديني المديد الذي تعرضت له الأقلية الدينية الأيزيدية من قبل قادة وأتباع الأديان الأخرى على امتداد العصور المنصرمة. ولم يقتصر ذلك الاضطهاد على التعذيب والتشريد أو النهب والسلب والاعتصاب والعبودية وبيع المختطفين بسوق النخاسة فحسب، بل اقترن أيضاً بتصفيات جسدية متواصلة بهدف إنهاء وجودهم أصلاً أو اختطاف أطفالهم وتربيتهم وفق الديانات الأخرى ومنها الديانة الإسلامية. وقد حصل هذا مع أطفال المسيحيين في الأقاليم ذات الديانة المسيحية التي كانت تابعة للدولة العثمانية، والتي جئنا على ذكرها في مكان آخر من هذا الكتاب.

- السعي لتحويل الأيزيديين عن دينهم وإدخالهم في الديانة المسيحية أو الإسلامية واستخدام كل الوسائل غير المشروعة لتحقيق هذا الغرض.

- المغالطة في نشر معلومات غير حقيقية واتهامات باطلة عن أصل الديانة الأيزيدية والأسس التي تعتمدها والمبادئ التي تؤمن بها والأسس الأخلاقية التي تعتمدها، ومحاولة جادة للإساءة إلى الأيزيديين من خلال اعتبار أنهم كانوا جزءاً من

المسلمين وارتدوا عن دين الإسلام، وبالتالي، يحق للمسلمين إصدار الفتاوى الدينية بحقهم وقتلهم. ومن الجدير بالإشارة أن بعض رجال الدين المسيحيين قد تمسك بنفس الدعوى حين حارب الأيزيديين باعتبار أنهم كانوا قد دخلوا المسيحية ثم ارتدوا عنها. وتشير الدراسات التاريخية الموثقة إلى أن أعدادا غير قليلة من الأيزيديين أُجبروا على التخلي عن الديانة الأيزيدية والالتحاق بالديانة المسيحية أو الدين الإسلامي في فترات مختلفة، إلا أن اضطهاد المسؤولين في الدولة العثمانية وحكام المناطق المختلفة من كردستان، سواء كانوا من الأتراك أم من الأكراد أم من العرب، كان بشعاً للغاية في محاربة الأيزيديين والديانة الأيزيدية وفرض تخليهم عن ديانتهم لصالح الديانة الإسلامية. ولكن الغالبية العظمى منهم قاومت هذه السياسية التمييزية وصمدت في وجه الإرهاب والاضطهاد. وكثرة منهم لقت حتفها أيضاً. ولا بد لكل منصف أن يؤكد بأن القرون المنصرمة التي تميزت بممارسة الإرهاب الفكري والسياسي والديني والقومي غير المنقطع الذي تعرض له الأيزيديون لم يبق دون تأثير مباشر أو غير مباشر على الديانة الأيزيدية وبعض طقوسها وعلى أتباعها وأوضاعهم النفسية والاجتماعية. ويمكن أن نتلمس ذلك في بعض عادات وتقاليد أو أسماء بنات وأبناء الأيزيديين مثلاً^(٦١).

- وكانت وسيلة الدفاع الأساسية لدى الأيزيديين، رغم مقاومتهم المستمرة بالسلاح لتلك المساعي الاستبدادية دفاعاً عن وجودهم وحقهم في الحياة ودفاعاً عن ديانتهم ومنع تسرب البدع والإضافات أو الإفساد عليها، وحقهم في الانتساب إليها، كانت الانغلاق الشديد على الذات وممارسة السرية التامة بصدد أسرار وطقوس الدين الأيزيدي وعدم كشفها إلا للمجموعة المخولة بذلك، وهي مجموعة صغيرة جداً، حتى إن كثرة كبيرة من المريدين لا يعرفون بتلك الأسرار. وقاد هذا الانغلاق الديني إلى عزلة شديدة عن بقية شعوب المنطقة مما أعاق تطور هذه المجموعة البشرية سياسياً واجتماعياً وثقافياً وتعليمياً بسبب خوفها من الأذى الذي يمكن أن يلحق بها وبدينها جراء ذلك الاحتكاك أو الكشف عن الأسرار، وبالتالي لم تستطع أن تجني ثمار التقدم النسبي المحدود الذي حصل في المنطقة الكردية بالذات.

(٦١) قارن: جندي، خليل د. نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية. طبعة خاصة بالمؤلف. ألمانيا. ١٩٩٧. ص ١١٧-١١٩.

وحرمت القوى الدينية المهيمنة على أمور الدين والدنيا في مجتمع الأيزيدية على الناس ممارسة ثلاث مسائل جوهرية هي:

- تعلم القراءة والكتابة.

- الزواج بمن هم من غير أتباع الديانة الأيزيدية نفسها، أي حصر الزواج ما بين الأيزيديين وفق قواعد خاصة قائمة على تراتبية دينية- اجتماعية ذات قيود صارمة، أي إن الزواج مسموح للأيزيديين في إطار الطبقات الدينية الاجتماعية التي ينتمون إليها وفق أسس أو قواعد ثابتة تقريباً.

- قبول أعضاء جدد في الديانة الأيزيدية ممن يرغب التخلي عن ديانتهم لصالح الديانة الأيزيدية واعتبار الأيزيدي بالولادة ومن أبوين أيزيديين فقط. وفي ضوء هذا الموقف الصارم لا تعتبر الديانة الأيزيدية ذات طبيعة تبشيرية خارج حدود الأيزيديين أنفسهم. وقليلة حقا تلك الديانات التي تقوم على مثل هذه القاعدة. وبهذا المعنى لا تعتبر الأيزيدية ضمن الديانات العالمية. فأتباعها لا يسعون إلى التبشير بدينهم أو نشره كما تفعل الأديان الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام، فهو دين محلي مغلق على أتباعه بالولادة.

ورغم كل الظروف التي مر بها الأيزيديون فقد احتفظوا بروح التسامح واحترام الأديان الأخرى والمسالمة ورفضهم الإساءة إليها أو إلى شخصها أو أي من القديسين، إذ لا يجدون ما يبرر ذلك دينياً وأخلاقياً. وهم في الوقت الذي يقصدون طاووس ملك يحترمون آدم، ونوح، وإبراهيم، وزرادشت، وموسى وعيسى بن مريم ومحمد بن عبدالله وغيرهم من الأولياء والصالحين.

قلنا بأن الأيزيديين في العراق يشكلون جزءاً من الشعب الكردي، وهم في الوقت نفسه يشكلون الغالبية العظمى من إيزيدي العالم. إذ أنهم وقبل ظهور المسيح بمئات السنين كانوا يعيشون في مناطق مثل سنجار وشيخان وبعشيقية ودهوك وتلعفر وزاخو على نحو خاص، إضافة إلى وجودهم في سوريا وتركيا وإيران وفي بعض مناطق جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة وعلى الحدود الروسية القفقاسية^(٦٢).

(٦٢) البندر، رشيد د. الأيزيدية "ديانة قديمة" تأثرت بالمحيط وحافظت على هويتها. مجلة روث-مجلة ثقافية دورية تعنى بالشؤون الأيزيدية. نيسان ١٩٩٧. ص ٩٥. راجع أيضاً: بريم، عصمت. نظرة تاريخية للديانة الأيزيدية. نفس المصدر السابق ص ٧٩.

وتعتبر المنطقة التي يقطنونها حالياً في العراق من أكبر معاقلهم على امتداد تاريخهم الطويل، كما إنها الموقع الذي تتمركز فيه أماكنهم المقدسة والتي تقام فيه طقوسهم واحتفالاتهم الدينية وأعيادهم القومية والشعبية. ويتحدث الأيزيديون باللغة الكردية، ولهم أبجديتهم القديمة الخاصة أيضاً إلى جانب الأبجدية الكردية، ويرتدون الزي الكردي المعروف. وما يميزهم عن بقية الأكراد هو صغر حجم وطريقة شدّ عمامة الرأس عندهم. علماً بأن لكل مجموعة كردية كبيرة عمامة رأس خاصة تختلف عن بعضها بالحجم أو بطريقة الشد أو باللون. ويمكن أن يلاحظ ذلك في مناطق العراق المختلفة مثل بادينان وسوران، أو بالنسبة إلى أكراد كردستان العراق وسوريا أو كردستان تركيا أو كردستان إيران. وبعض الأيزيديين يرتدون الزي العربي المعروف مثل الكوفية والعقال والدشداشة أو الصاية (الزبون) والعباءة.

الفصل الثاني:

الديانة الأيزيدية (٦٣)

يصعب على المرء القطع برأي معين بصدد الديانة الأيزيدية. فالبحث في الديانة الأيزيدية حديث العهد، خاصة بين أبنائه والعارفين بأصوله وطقوسه وتقاليدته. ونلاحظ اليوم تحسناً طيباً في هذا الصدد يمكن أن تحمل معها تفاعلاً بدراسات قيمة وأصيلة في المستقبل. والبحث في الديانة الأيزيدية يفترض أن يستند إلى معرفة واسعة بنظريات نشوء الأديان والعوامل الكامنة وراء ظهورها واتجاهات تطور الأديان القديمة والتفاعل والتأثيرات المتبادلة، إضافة إلى إطلاع جيد على تاريخ تطور الأيزيدية ومعرفة واقعية بأحوال الأيزيديين في موطنهم الأصلي. كما يفترض البحث الاعتماد على ثلاثة مصادر أساسية هي:

- * الدراسات العلمية التي حاولت الغوص في أصل الديانات القديمة وسعت إلى تقديم تفسيرات واقعية يمكن الركون إلى تحليلاتها واستنتاجاتها.
- * الاكتشافات الأركيولوجية في المنطقة.
- * الدراسات الأكثر حداثة التي تقوم بها وتنشرها الجمعيات والمؤسسات الأيزيدية.

(٦٣) عقد مركز البيزيدية خارج الوطن في الفترة الواقعة بين ٢٨-٣٠/١/٢٠٠٠ المؤتمر العلمي العالمي الأول حول الأيزيدية في مدينة هانوفر بألمانيا. وناقش المؤتمر على مدى هذين اليومين عدداً من البحوث العلمية حول الديانة الأيزيدية والمجتمع الأيزيدية والمشكلات التي تواجه أتباع هذه الديانة القديمة، كما التقى المؤتمر بالمجلس الروحاني الأيزيدي وتحاوروا مع أعضاء المجلس واستمعوا إلى إجاباتهم عن الأسئلة الكثيرة التي طرحها بنات وأبناء الجالية على المجلس. وتسنى لي حضور هذا المؤتمر بدعوة من مركز الأيزيدية خارج الوطن واستمعت إلى تلك النقاشات وحاولت عقد لقاءات مع بعض أعضاء المجلس الروحاني وعدد من أعضاء المؤتمر. حاولت خلالها أن أعمق رؤيتي وفهمي لهذه الديانة العراقية الضاربة في القدم. وفي أعقاب المؤتمر كتبت انطباعات سريعة عن المؤتمر نشرت في العدد الخاص رقم ٩ / ٢٠٠٠ من مجلة روز التي يصدرها مركز الأيزيدية في الخارج.

والباحثين من بنات وأبناء الأيزيدية المعروفين بموضوعيتهم العلمية وسعيهم لتقديم الحقائق المدققة عن الديانة الأيزيدية وعن حياة ونشاط الأيزيديين، رغم قلة عددهم وحادثة بحوثهم.

* الاعتماد على ما هو مسجل أو مكتوب لديهم، رغم قلة ما هو متاح من كتابات في هذا الصدد.

* الاعتماد على الثقة من الشخصيات الدينية والاجتماعية والعلمية الأيزيدية ذات الإطلاع الواسع والتي تدرك كنه الدين الأيزيدي وتلم به وتسعى إلى تعريف الناس بحقيقة هذا الدين.

ومع أن هذه الدراسة لا تسعى إلى الخوض في عملية بحث متكاملة وتفصيلية عن الأيزيديين والديانة الأيزيدية، فإنها تريد تقديم بعض الحقائق التي يركن إليها نسبياً عن هذه المجموعة البشرية الدينية التي تعتبر من بين أقدم سكان هذه المنطقة، وهي جزء من الجماعات البشرية التي قطنت أعالي بلاد ما بين النهرين (ميسوپوتاميا) أو ما يدعى اليوم بالعراق الحديث. كما إنها تستهدف التخلص من الأحكام المسبقة إزاء الآخر (الستريوتايب) التي تكونت عبر قرون من الصراع والمناهضة إزاء أتباع الديانة الأيزيدية، وخاصة في الفترة البيغضة من حكم الدولة العثمانية في المنطقة. ومن يعود إلى جملة من الدراسات التي صدرت عن بعض الكتاب العراقيين التي تتحدث، أي لا تبحث علمياً في الديانة الأيزيدية، سيجد أمامه مجموعة من تلك الأحكام بسبب الحكايات التي تناقلها الناس دون العودة إلى مصدرها ومعرفة أسباب ظهور تلك الحكايات، وبالتالي كان الأيزيديون عرضة للاضطهاد جراء تلك الأحكام المسبقة. ويمكن للإنسان أن يشير إلى كراسين بشكل خاص يعبران عن هذه الطريقة في الحديث غير المدقق وغير المسؤول عن الديانة الأيزيدية وهما على سبيل المثال لا الحصر: "تاريخ اليزيدية وأصل معتقدتهم" للسيد المحامي عباس العزاوي و"اليزيديون في حاضرهم وماضيهم" و"عبدة الشيطان في العراق (٦٤)" وهما من تأليف السيد عبدالرزاق الحسيني. وبسبب الانغلاق والصمت الذي اعتمده الأيزيديون (٦٤) جاء في دليل الجمهورية العراقي لسنة ١٩٦٠ حول معتقدات الأيزيدية ما يلي: "معتقداتهم - يظهر من معتقداتهم أنهم من أولي الأديان الثنوية التي تعبد الخير والشر بما كانوا من بقايا الزرادشتية التي تجعل الكون تحت سيطرة النور والظلام، <

إزاء مثل هذه الدراسات ولفترات طويلة، أمكن نشر الكثير من الأراجيف والإساءات الموجهة لأتباع هذه الديانة. أما الآن فقد بدأت محاولات أولية جادة لمواجهة مثل تلك الكتابات بالحوار الموضوعي الهادئ من جانب أتباع هذا الدين أو ما باحثين آخريين يسعون إلى التحري عن الحقيقة لا غير. من الثابت والمعروف بأن الديانات عند الشعوب لم تتكون دفعة واحدة بل مرّت بمراحل تاريخية عديدة وشهدت عمليات كثيرة من الحذف والإضافات أو التغيير والأخذ والعطاء، والتفاعل المستمر مع الديانات والثقافات أو الحضارات الأخرى. وبمرور الزمن اتخذ هذا الدين أو ذاك، بهذا القدر أو ذاك، خصائص وسمات تعبر عن هذا الشعب أو هذه الطائفة الدينية أو تلك، وهي بالتالي تجسيد لوعي جماعي عام تكون في إطار هذا المجتمع أو ذاك. وكثيراً ما كانت تتداخل العوامل الدينية بالعوامل الإثنية أو القومية وتشكل في المحصلة النهائية معالم معينة لهذه المجموعة البشرية أو تلك. وهذه الحقيقة لا تنفي بطبيعة الحال حقيقة أن الأديان والثقافات وبالتالي الحضارات غير منفصلة عن بعضها وتشكل مجتمعة الحضارة البشرية. إنها ليست بالضرورة مجرد حاصل جمع لكل ذلك بل هي تجسيد للتشابه والتماثل والتفاعل والتأثير المتبادل في ما بينها جميعاً وعلى مر العصور. ولم تنته عملية بروز أو نشوء أديان أو معتقدات أخرى عند البشر، بل إنها كانت وستبقى عملية مستمرة ما دام الإنسان موجوداً وما دامت المجتمعات قائمة ومتفاعلة في ما بينها.

وتعبر الديانة الأيزيدية، في بنيتها الداخلية وفي أوجه بروزها وفي علاقاتها مع

> والشائع عنهم أنهم يعبدون الشيطان بصفته مثلاً لقوة الشر على مبدأ المجوسية أما قوة الخير فينسيبونها إلى الله تعالى وهم يقولون أن الله الذي لا حد لوجوده ومحيطه للخلايق لا يفعل بهم شرراً لأنه صالح، أما الشيطان فهو منقاد طبعاً إلى عمل الشر وعليه فالحكمة تقضي على من يريد السعادة أن يهمل عبادة الرب ويطلب ولاء الشيطان. ويرمزون إلى الشيطان (بطاووس ملك) وهو تمثال لديك مصنوع من نحاس أصفر واقف على حامل يشبه الشمعدان. وهم يسجدون للشمس عند بزوغها تعبداً منهم إليها...". راجع: دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠. يصدر بقرار من مجلس الوزراء تحت إشراف وزارة الإرشاد. دار مطبعة التمدن. بغداد ١٩٦١. ص ٤٣٢-٤٣٣.

الأديان الأخرى ومع الشعوب والأقوام الأخرى، عن منظومة من القيم والمعتقدات والعادات والتقاليد المتراكمة عبر الزمن، وعن مجموعة من المراسيم والطقوس والاحتفالات والأعياد الدينية والشعبية والقومية في خزين أدبي قصصي وشعري وروائي وأساطير وحكايات، محفوظ في الصدور أو مدون في كتب رغم قلة هذا الخزين، وكذلك في مزارات ومواقع مقدسة وأدعية تقرأ وقرابين تقدم وأغان ورقصات وأناشيد أو ترانيل دينية وألعاب شعبية تمارس، وفي سلوكية ورؤية أو رسم صورة الـ"أنا" وصورة ثانية للـ"آخر" وصورة عن العالم، وفي الملابس والمأكول والمشرب وما إلى ذلك، وفي الأحزان ودفن الموتى وفي الأفراح والأعراس ومنها أفراح الختان للأولاد (٦٥)، وفي المصائب والمحن والعذابات التي مرت بمعتنقي هذه الديانة، وفي التماثم والتعاويد التي تستخدم وتحمل طابعها الخاص، وفي الظلم والاضطهاد الذي لحق بهم (٦٦).

وأخيراً وليس آخراً يشعر المرء بذلك التلاحم الشديد بين التسمية الدينية وتسمية المجموعة البشرية الكردية باسم دينها مباشرة. ويمكن للمرء أن يستشف منه أو يفهم بشكل أفضل عند الإطلاع الجيد على بعض أسس وقواعد هذه الديانة وعلى سبل ممارستها ومدى الإفصاح عنها والمجاهرة بها، الحالة النفسية والتكوين الاجتماعي لمعتنقي هذه الديانة والمراحل التاريخية التي مروا بها والأجواء الحقيقية التي عاشوا في ظلها. وفي مقدور متتبع الديانة الأيزيدية كما يبدو لي أن يحدد تطورها بثلاث مراحل أساسية هي:

المرحلة الأولى: وتخص الفترة التي سبقت الشيخ عادي بن مسافر والشيخ حسن وبقية الأولياء الصالحين وأصحاب الكرامات عند الأيزيديين. أي الفترة التي كانت الأيزيدية قائمة على أساس طقوس وتقاليد وعادات، أو ميثولوجيا غير مسجلة أو غير مكتوبة، بل محفوظة في الصدور يتوارثها الأيزيديون أباً عن جد، رغم أن الكتابة كانت معروفة في تلك الأزمان وكان العراقيين القدامى قد سجلوا جملة من

(٦٥) يعتبر الختان واحداً من أكثر الطقوس الدينية قدماً وأهمية عند الأيزيديين وهم يشتركون في ذلك مع اليهود والمسلمين مثلاً، والذي لا يجوز بأي حال من الأحوال إهماله.

(٦٦) قارن: جندي، خليل د. نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيديين. طبعة خاصة بالمؤلف. ألمانيا. ١٩٩٧. ص ٥٢.

دياناتهم والطقوس والماراسيم التي كانوا يمارسونها على الرقم التي انتقلت إلينا عبر العصور والتي تم اكتشافها منذ القرن التاسع عشر الميلادي في مناطق مختلفة من بلاد الرافدين. كما أن سكان بلاد فارس سجلوا في فترات متباعدة جوانب كثيرة ومهمة من دياناتهم - بما فيها الأسس التي اعتمدها والطقوس والتقاليد التي مارستها، كما في أفيسستا (آبيستا) مثلاً. وقد أدت هذه الحقيقة إلى نشوء حالتين معروفتين عموماً بالنسبة إلى كل الأديان غير المسجلة والمحفوظة في الصدور هما:

* ضياع جزء من ذلك التراث وتلك الميثولوجيا والكثير من طقوس العبادة وتقاليدها، بسبب الحروب والأوبئة والفيضانات والأمطار الجارفة التي تأتي على كثرة من البشر من حفظة تلك الأديان والعارفين بخفاياها وأسرارها ومعتقداتها المختلفة، إضافة إلى التغييرات التي تطرأ على النصوص المحفوظة بسبب الأجيال المتتابة التي يصعب الحفاظ على كل شيء كما كان في الماضي.

* دخول طقوس ومعتقدات وعادات جديدة لم تكن معروفة عند السلف، سواء عبر الاحتكاك بالأديان الأخرى أو بسبب الحاجة التي تنشأ عند الأفراد وفي المجتمع، أو بسبب الصراعات والنزاعات والحروب، أو بسبب الاضطهاد الذي كان يتعرض له أتباع هذه الديانة وتفرض عليهم الأخذ بطقوس وتقاليد وعادات الفاتحين المنتصرين.

المرحلة الثانية: تبدأ هذه المرحلة مع بدء نشاط الشيخ عادي بن مسافر (طاووس ملك) والشيخ حسن (ويرمز للقمر) والشيخ شمس الدين (ويرمز للشمس)، بعد قيامهم بوضع وتسجيل القواعد وتثبيت الطقوس الدينية وتكريس نظام الطبقات أو المراتبية الاجتماعية (Kastensystem) السارية في المجتمع الكردي الأيزيدي حتى الوقت الحاضر في كتب تعتبر بالنسبة للديانة الأيزيدية مقدسة، كما هو حال بقية الكتب المقدسة في الأديان الأخرى. وهذه المجموعة من الأولياء يعتبرون من أبرز أولياء الديانة الأيزيدية، إضافة إلى آخرين ومنهم بشكل خاص الشيخ بركات والشيخ فخر الدين والشيخ سجاد الدين.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة الجديدة التي يمكن القول عنها إنها بدأت مع منتصف القرن العشرين والتي ارتبطت بعدد من الظواهر الجوهرية، نشير فيما يلي إلى أبرزها:

- كسر القيود التي كانت تفرض على الأيزيدية من جانب القيادة الدينية

والدنيوية في الدخول إلى المدارس والتعلم وانتهاال العلم، رغم أن هذه الظاهرة ما تزال بحاجة إلى عناية أكبر وخاصة بين النساء، إذ ما يزال المجتمع محافظاً في هذا الشأن، وأكثر قليلاً من بقية بنات وأبناء كردستان.

- القبول بأخذ وظائف ومراكز في الدولة وفي الخدمة الإلزامية في الجيش التي كانت ترفض في السابق لاعتبارات دينية.

- بروز مجموعة من الشباب الأيزيدي الذي قرر البحث في الديانة الأيزيدية والتحرري عن تطورها التاريخي والأسس التي تعتمدها والوجهة التي تطورت بها.

- ولم يكتف هذا الفريق من الباحثين بالبحث والتدقيق، بل سعى إلى نشر ما توصل إليه وتوسيع رقعة المطلعين على هذه الديانة بتفاصيل غير قليلة سمحت لكثرة من الأيزيديين أنفسهم الإطلاع على ما كان خافياً عليهم. إضافة إلى أن هذه الواجهة تساعد اليوم على جر مجموعات أخرى للبحث في الديانة الأيزيدية، وتأمين الاحتكاك مع الباحثين في قضايا الأديان والديانة الأيزيدية في مختلف أرجاء العالم. إنها فترة انفتاح فكري وتفاعل ثقافي وتلاقح خصب يمكن أن يقود إلى نتائج مثمرة لاتباع الديانة الأيزيدية. وأصبحت أوروبا اليوم تشكل أحد المراكز المهمة في مجال البحث العلمي في أصل الديانة الأيزيدية.

والديانة الأيزيدية غير معقدة ولا تختلف كثيراً عن المبادئ أو القضايا الإيمانية التي اعتمدها الأديان القديمة الأخرى، وهي قائمة على أساسين ماديين مهمين، بغض النظر عن الطبيعة الميتافيزيقية للدين وعن المضمون الأسطوري من جهة، وعن مدى استيعاب أتباع هذه الديانة لهذه الحقيقة النابعة من الحياة ذاتها من جهة أخرى هما:

- اعتبار الدين انعكاساً لواقع المجتمع وحاجاته المشتركة والرؤية والوعي الجماعيين له ولطبيعة العلاقات الاجتماعية المنثقة عن طبيعة علاقات الإنتاج التي كانت أو ما تزال تسوده والتي تتجلى بدورها في التراتبية الاجتماعية التي لم تفصل الدين عنها، بل ربطت الدين بها مباشرة، وبالتالي جسدت طبيعة ودور ومهمة الدين بشكل واضح وصريح. فكثرة من رجال الدين من مختلف الأديان والمعتقدات الغيبية وعلى خلاف ما يطرح في تلك الأديان في الجانب النظري منها، يتحدثون عن المساواة ولكنهم يمارسون عملياً عدم المساواة ويتحدثون عن الحرية ويمارسون نقيضها، ويتحدثون عن التسامح الديني ويمارسون التعصب والتزمّت والكرهية ويؤججون الحقد والنزاعات بين الناس. فالدين الذي بدأ كتعبير عن حاجة إنسانية لدى بني

البشر وعن ضعف الإنسان إزاء الطبيعة وظواهرها الكثيرة التي كانت وما تزال في بعضها تهدد حياته وتشكل خطراً على عائلته وأسباب عيشه، فإنه تحول بمرور الزمن وعبر عدد كبير من رجال الدين والحكام والمتنفذين ومالكي وسائل الإنتاج إلى أداة لفرض الهيمنة وتبرير الاستغلال والفقير الذي تعاني منه كثرة من بني البشر مقابل قلة تتمتع بمغانم الحياة وثروات الطبيعة ومنتجات الناس أنفسهم. كما يستخدم الدين كأداة لتحشيد الجيوش وتسييرها نحو جبهات القتال، وكأداة في العزل ومحاربة الآخر. لقد أدخلت جماعات من رجال الدين، وليس كلهم، وظائف جديدة إلى الدين لم تكن معروفة في حياة الإنسان قبل بروز الأديان أو بعد بروزها وفي مراحلها الأولى. ويمكن للإنسان متابعة هذه الوظيفة الجديدة في فترات الحروب الصليبية ما بعدها أو في الحروب الحديثة أيضاً. ولا شك في أن الربط بين القيادة الدينية والقيادة الزمنية أو الدنيوية وجعلها قيادة واحدة أو بيد مجموعة واحدة من البشر في هذا البلد أو ذاك كان وما يزال وسيبقى أحد الأسباب الرئيسية في تفاقم قدرة هذه المؤسسة الموحدة على التحكم بإرادة الإنسان وجعله خاضعاً لها وفرض الاستبداد على البشر. ومن هنا يبرز في المجتمع الأيزيدي ذاته ذلك الدور الذي يمارسه الأمير باعتباره المسؤول الروحي أو الديني والمسؤول الدنيوي عن الأيزيديين، رغم وجود سلطة أخرى هي الدولة التي تتحكم بالسلطة الزمنية في البلاد. فالأمير يجسد عملياً إرادة الله أو الطاووس ملك على الأرض التي يعيش ويعمل فيها الأيزيديون. وفي هذا لا يختلفون عن الأديان الأخرى أو الجماعات الدينية الأخرى التي ترفض الفصل بين الدين والدولة وتعتبر أي انفصال بينهما تجاوزاً على إرادة الخالق (٦٧).

- وحدة وصراع الأضداد في ذات الله، في ذات ملك طاووس، في الثنائيات المتجسدة في الواحد الأحد، في وحدة النور والظلام، في وحدة الخير والشر، في الصراع الدائم بينهما في الواحدة.

وأتباع هذه الديانة يؤمنون:

(٦٧) ويفترض الإشارة في هذا الصدد إلى أن الأمير تحسين يمثل شيخ عادي، إذ أن عائلة الأمير تحسين تعتبر نفسها من سلالة شيخ عادي، في حين أن جماعة أيزيدية أخرى تعتبر أن شيوخ شيخ حسن هم أحفاد شيخ عادي، وأن الأمير يمثل الدين الجديد (شيخ عادي) والدولة (القضايا المدنية)، وبالتالي فهو لا يمثل طاووس ملك.

١- بوجود الله، خدا أو الخالق والرازق باعتباره القوة العليا الرمزية للديانة الأيزيدية، وهو المتجسد في طاووس ملك أو إنه طاووس ملك ذاته، إنه إله الشمس، مادة الكون الأكثر طهراً. ويمكن أن يتأكد المرء من ذلك من خلال قراءة "دعاء طاووس ملك" إذ به يمكن أن يتعرف الإنسان على موقف الديانة الأيزيدية من مكانة طاووس ملك المقدسة:

- ١- يا رب! لعظمتك ولقمامك وملوكيتك
يا رب! أنت الذي خلقت نفسك بنفسك
٢- يا رب! أنت ملك ملك الجان،
أنت ملك ملك كريم،
أنت أزلي قديم
أنت حتى الأبد أمنية الروح.
يا رب! أنت الذي خلقت نفسك بنفسك.
٣- يا رب! أنت ملك الإنس والجان،
ملك العرش والكرسي،
أنت الصمد، الظاهر والمخفي، الحي، الواحد
الفرد الحميد،
يا رب أنت الإله!
٤- يا رب! أنت رب السماء
رب الشمس والقمر،
رب جميع المخلوقات،
أنت رب العطاء،
يا رب! أنت الذي خلقت نفسك بنفسك!
٥- يا رب! اسمك فوق كل الأسماء
كم هو أسمك، كم عظيم أنت؛
".....؟"
أنت المقدس العالي الشأن،
يا رب! أنت الذي خلقت نفسك بنفسك.

- ٦- يا رب! أنت خلقت الحوت،
وأنت معطي القوت،
أنت الحليم الملكوت،
أنت عالم العلماء،
يا رب! أنك خلقت نفسك بنفسك!
٧- يا رب! أنت صاحب المال والحياء
مكانك في كل بقعة،
يا رب! أنك خلقت نفسك بنفسك!
٨- يا رب! لا لون لك،
لا لحن لك، ولا صوت
أنت الغوث وأنت المدد،
يا رب لا يدري أحد كيف أنت!
٩- يا رب! أنت ولي الصلاة،
أنت الذي تعطي الأموال والأموال
يا رب ! أنت الذي خلقت نفسك بنفسك.
١٠- يا رب ! أنت حاكم الملوك والفقراء،
أنت حاكم جميع العالم،
أنت الذي وضعت التوبة على آدم،
وأنت بعيسى ابن مريم،
يا رب ! أنك خلقت نفسك بنفسك.
١١- يا رب ! أنت الرحمة وأنت الكرم،
أنت الأمين وأنت الصمد، ونحن لا شيء،
يا رب ! أنت الذي خلقت نفسك بنفسك.
١٢- يا رب ! أنا العليل وأنت الدواء،
أنت الطبيب، أنت الحكيم، ونحن الغرباء.
يا رب ! أنت عارف بدائنا ودوائنا!
١٣- يا رب ! أنت أنيس الغرباء،

٢- وإن تقديسهم الخاص لطاووس ملك ينشأ من اعتباره المخلوق الأول من قبل الله، إنه أول ورأس ورئيس وطاووس بقية الملائكة.

٣- احترامهم الكبير لبقية الملائكة مع تقديس خاص للشمس والقمر، ويمتنعون عن تدنيس النار والماء والهواء، إضافة إلى احترامهم للتراب. وهي العناصر الأربعة المعروفة في الديانة المزدكية (الزرادشتية) في إيران أو في الهند أيضاً. وسجود الأيزيديين للشمس عند شروقها ناشئ من كونها مانحة الضوء والدفع والحياة والإنسان، إضافة إلى منح القدرة على رؤية الأشياء، ولكن قوة حرارة الشمس يمكن أن تكون مدمرة، وحارقة ومميتة أيضاً. ومن هذه الطاقة الكامنة في الشمس توجهت الكثير من القبائل والشعوب صوبها عابدة إياها ومنتظرة أو آملة منها الخير وراجية منها إبعاد الشر عنها. وتكشف الشمس أمام الإنسان الاعتيادي قوة الطبيعة بظواهرها المختلفة، بحركتها وتناقضاتها، سواء أدرك أسبابها أم لم يدركها، وباعتباره جزءاً منها يتأثر بها ويتفاعل معها. ولا شك في أن التباين الشديد في حركة ظواهر الطبيعة المختلفة أو فعل قوانينها ونتائج أو عواقب تلك الأفعال على الإنسان والمجتمع، التي لم يكن في مقدور الإنسان اكتشافها حينذاك وبالتالي حيرته، هي التي جعلته يتوجه نحوها ويسجد أمامها ويصلي لها، أي يعبدها ويبدى كل الاحترام والخشوع أمامها، سواء كانت أفعالها خيراً تجلب له النفع أم كانت شراً وتدميراً تلحق به الضرر. لقد كان الإنسان والمجتمع أمام الشمس كلغز محير من ألغاز الحياة، أمام وحدة الطبيعة والإنسان، سواء أدركها أم لم يدركها. وبعض هذه الألغاز قدر للإنسان أن يكتشفها، وأن يكتشف في الوقت نفسه الظواهر التي تنشأ عن فعلها والقوانين الفاعلة فيها أو المحركة لها. لقد وقف الإنسان ولقرون طويلة عاجزاً نسبياً عن الوصول إلى الطريقة المناسبة التي يستطيع بها تجاوز أو تقليل عواقب فعل الطبيعة أو فعل حركة القوانين الموضوعية التي لا يتدخل الإنسان في صنعها ولا في قدرته على إيقافها.

٤- كان للأيزيديين عدد كبير من الآلهة (خودان)، كما كان الحال عند السومريين

(٦٨) اقتبس نص الدعاء من كتاب السيد الدكتور خليل جندي الموسوم "نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية". دار نشر رابون، السويد. ١٩٩٨. ص ١٥٦-١٥٨.

والأكديين والبابليين والآشوريين في ميسوبوتاميا. ولكنهم يؤمنون بإله رئيسي واحد، إنه طاووس ملك، مع اعتمادهم على آلهة آخرين في فترات لاحقة ثم اتخذوا سبيل التوحيد. والتوحيد بالمفهوم الذي أشرنا إليه سابقاً في أنه يمثل النور والظلام، الخير والشر، الصالح والطالح وليس في عبادة النور ولفظ الظلام وفي تقدير الخير ورفض الشر أو في قبول الصالح ورفض الطالح. فهما موجودان متجاوران ويفترض رؤيتهما في وحدتهما الجدلية. وبعض الباحثين الأيزيديين يشير إلى أن الأيزيديين يرون بأنهم كانوا أول من التزم أو وضع مبدأ التوحيد أو الإله الواحد، إلا إن الباحث الدكتور خليل جندي يرى بأن فكرة الله المجردة وصلت إلى الديانة الأيزيدية من الديانات الأخرى مثل اليهودية والمسيحية والإسلامية (٦٩).

وهو على حق كبير في رأيه هذا. إلا أن اختلاف الديانة والعقيدة الأيزيدية عن الديانة والعقيدة المزدكية المحافظة يبرز ابتداءً من حقيقة أن الأيزيديين يعتبرون من تلك الشعوب التي أقرت مبدأ التوحيد أو الوحدة القائمة بين النور والظلام في الواحد الأحد. ويمكن أن يكون قد نشأ هذا الموقف من تأثير الديانتين اليهودية والمسيحية، سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة. ولا أعتقد بأن الإسلام المتأخر زمنياً عن الاثنين كان وراء أخذ الأيزيديين لمبدأ التوحيد. ويشير بعض الكتاب والباحثين في الأيزيدية إلى أن البعض يعتقد بأن الاهتداء أو الأخذ بفكرة التوحيد عند الأيزيدية قد بدأت مع إبراهيم الخليل باعتباره نبي الأيزيديين. وحتى لو قبلت هذه الفكرة مجازاً فإن الديانة الأيزيدية ربما هي أقدم بكثير من عهد إبراهيم الخليل من جهة، وأن فكرة التوحيد عند الأيزيديين ليست قديمة جداً من جهة أخرى (٧٠).

تعتمد الديانة الأيزيدية تمثالاً برونزياً يمثل الطاووس، الذي يرمز ويجسد طاووس ملك، ومكانه في مقبرة الشيخ عادي بن مسافر، إضافة إلى ستة طاووس أخرى من

(٦٩) جندي، خليل د. نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية. مصدر سابق ص ٤٩.

(٧٠) يشير الدكتور خليل الجندي إلى أن طاووس ملك هو إله السماء والشمس، أب ورئيس الملائكة ومن أكبر آلهة الأيزيدية. وبهذا المعنى يعتبر الأيزيديون عبدة الله - طاووس ملك. وهم أول من عرفوا حقيقة الوحدانية إلى جانب إيمانهم بآلهة الظواهر الطبيعية الأخرى. رجع نفس المصدر السابق. ص ٥٣.

نحاس أيضاً تسمى بالسناجق وتعطى لأفراد مرتبة القوالين الدينية، أي الدعاة، الذين يتوزعون ويتوجهون بها صوب الأيزيديين في مناطق سكناتهم للتبشير والدعاء والتبرك بتلك الطواويس ومن أجل جمع التبرعات من الأيزيديين، أي من المريدين على نحو خاص (٧١).

وهؤلاء الملائكة السبعة وبضمنهم رأس الملائكة طاووس ملك يتجسدون بالنسبة للديانة الأيزيدية في شيوخ معروفين بكراماتهم. وجدير بالذكر أن الديانة المزدكية تؤمن بدورها بوجود نفس العدد من الملائكة يحسب على ملاك النور والحكمة والصدق والصرحة... الخ، ونفس العدد من الملائكة الذي يحسب على قوى الظلام والشر... الخ. أي أن المجموعتين منفصلتان عن بعضهما عند الفرس القدماء، المجموعة الأولى مقبولة والأخرى مرفوضة وملفوظة في آن واحد، وبالتالي فهي ملعونة أيضاً. وهذا الأمر غير موجود عند الأيزيديين. ومن هنا يأتي أيضاً عدم اعترافهم بهذا التقسيم. والتقسيم الإيراني ينسجم إلى حدود بعيدة مع الأغراض والمصالح السياسية للملوك ورجال الدين الإخمينيين والساسانيين عندما أصبح الدين المزدكي أو الزرادشتي ديناً رسمياً للدولتين المتعاقبتين. فكان لا بد للدولة أن تفصل بين أهورا مازدا وبين أهرمان ليتمكنها تأمين حكمها وفرض رؤيتها للخير والشر، وهو أمر بالغ الأهمية. وقد أخذت بالتقسيم الإيراني الأديان الأخرى من حيث التطبيق وتوزيع العمل بين ملائكة الرحمة وإبليس ملك الشر، علماً بأنها قد وضعت كل ذلك في ذات الله. فوفق إرادة الله يمكن أن يحصل الخير ويمكن أن يقع الشر. وفي هذا الموقف، أي توحيد القوتين في ذات الله، لا تختلف تلك الأديان عن الأيزيدية. وهنا تبدو اللوحة الخاصة بهذه الديانة وديانات قديمة أخرى حيث تعبر من الناحية الفلسفية والحيايتية، بغض النظر عن مدى معرفة الإنسان الاعتيادي بهذه الحقيقة، عن التناقض في الواحد، عن وجود إبليس في الله ذاته (٧٢)، في ثنائيته، وبالتالي في فعل الخير وفعل الشر في الواحد. والصراع بينهما في الواحد هو الذي ينتهي بفعل

(٧١) البندر، رشيد د. الأيزيدية "ديانة قديمة" تأثرت بالمحيط وحافظت على هويتها. مصدر سابق. ص ٩٢.

(٧٢) كتب الدكتور رشيد البندر مشيراً موقف الأيزيدية من إبليس يقول: "والحقيقة أنهم يتشائمون من أي لعنة، وفي هذه القضية بالذات للأيزيدية فلسفة خاصة ومفادها أن <

هذا وهو الخير، أو بفعل ذلك وهو الشر. لست معنياً بأن أحيل الفكر الديني القديم إلى الواقع الراهن وما اكتشف من قوانين في القرنين المنصرمين وكأنها كانت معروفة سابقاً. ولكن وحدة وصراع الأضداد، هذا القانون الجدلي الموضوعي الذي اكتشف في القرن التاسع، قد تلمس الناس فعله في الماضي دون أن يجدوا له اسماً أو أن يفهموا طبيعته أو أسباب وجوده أو يفسروا أسباب فعله.

وللفكر الديني الأيزيدي اتجاه صوفي متميز يتجسد في الزهد والتواضع والعيش غير الناعم والكرم والابتعاد عن إيذاء الغير وحب السلام. وكما في العديد من الأديان القديمة نجد لدى الصوفيين الأيزيديين أفكاراً مقارنة لأفكار الصوفيين في سائر أرجاء العالم، تلك الأفكار التي تشير إلى إمكانية اندماج ذات الله بذات الإنسان المؤمن والمتسامي في تدينه. إذ أن الأيزيديين يؤمنون بتناسخ الأرواح وحلول ذات الله في ذات الشيخ عادي بن مسافر. فهو والحالة هذه يمثل المعبود المباشر للأيزيديين. وفي الموقف من تناسخ الأرواح يبرز ما يشير إلى وجود توافق فكري وعملي بين المتصوفة الإسلاميين والمتصوفة الأيزيديين. ويمكن إيراد شخصية الحلاج كنموذج للمتصوفة في الإسلام، إذ تلقى شخصية الحلاج تبجيلاً خاصاً لدى الأيزيديين، كما تحظى بنفس الاحترام لدى المسلمين وغيرهم، بسبب مواقفه المبدئية والعذابات التي تعرض لها في حياته وفي طريقة موته دفاعاً عن المثل التي كان يؤمن بها. ولا بد لي من الإشارة إلى أن المنطقة الكردية في العراق قد تميزت في

> الملك المعني (إبليس ك.ح) يرفض السجود لأدم هو أحد الملائكة السبعة لديهم، وهو عزرائيل المعروف بطاؤوس ملك. وتقديراً لهذا الرفض أنعم الله عليه بمنصب رئيس الملائكة. وهناك أساطير عدة بشأن هذا الملك لا مجال لذكرها، واعتقادهم هذا له علاقة مباشرة وغير مباشرة بالعديد من أساطير الأديان الأخرى. وتكريماً لطاؤوس ملك الذي يرفض الأيزيديون تسميته ب (إ)، كما يذكر خطأ في أغلب كتابات الآخرين عنهم، يعتبر عيد رأس السنة عندهم الموافق نيسان (أبريل) من كل عام عيداً لهذا الملك، وهو أهم عيد من أعيادهم السبعة (راس السنة، عيد الشيخ آدي، عيد القربان ويقام تكريماً لإبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، وعيد الجماعة ويذبح فيه العجل كقربان للشمس، وعيد صيام أيزيد، وعيد الأموات الذي يقابله عيد الأضحى عند المسلمين مع الاختلاف بالمدة، وعيد خضر الياس كما عند المسيحيين. وأغلب هذه الأعياد تأتي بعد الصيام". راجع: البندر، رشيد د. "الأيزيدية ديانة قديمة..." مصدر سابق. ص ٩١-٩٢.

انتشار أفكار التصوف الإسلامي التي توسعت كثيراً في نهاية العهد الأموي وفي العهد العباسي بشكل عام وأثرت بدورها على السكان الأيزيديين وعمقت من وجهتهم التصوفية، خاصة وان أوضاعهم المعيشية والفقر الشديد الذي كانت تعاني منه المنطقة كان مشجعاً لنمو الصوفية. ومن المفيد الإشارة إلى احتمال آخر مفاده أن الأيزيدية، وهي الأقدم ديناً من الإسلام، كانت من بين الأديان والفلسفات التي اعتمدت الزهد والتصوف وأثرت في الطريقة الصوفية التي ظهرت لدى طائفة من المسلمين في فترة الحكم الأموي ومن ثم في العهد العباسي. علماً بأن التصوف بمعناه الأساسي نظام تديني ضارب بالقدم وجد في المجتمعات العربية قبل الإسلام وفي وادي الرافدين أيضاً حيث كان المتصوفون يمارسون الزهد والتنسك وتقديم القرابين وما إلى ذلك (٧٣).

ومن الجدير بالإشارة إلى أن التصوف بشكل عام يلتقي عند مختلف الأديان في سمات وخصائص مشتركة يصعب التمييز بينها، مع وجود خصائص أخرى ترتبط بشكل ملموس بمنهج الدين المحدد ذاته. فالزهد والتقشف والتنسك والذوبان في ذات المعبود والتوحد معه أو فيه - سواء كان إلهاً واحداً أو أم صناماً بعينه، أم آلهة أخرى - في ذات الفرد ذاته، فهي كلها تعتبر ممارسات مشتركة بين المتصوفة على مدى التاريخ.

تستند الديانة الأيزيدية إلى مصحفين هما: مصحف ره ش أي المصحف الأسود، ومصحف الجلوة، إضافة إلى كتاب روژ (Roj) المقدس، الذي يقال عنه أنه قد كتب من قبل الشيخ حسن نفسه وبالاعتماد على ما وصله من الأسلاف وعلى أفكار الشيخ عادي بن مسافر وأفكاره بالذات. وتشير بعض المصادر إلى أن هذا الكتاب قد اكتشفه البعض في منطقة بادينان في كردستان العراق (٧٤).

ويشير الدكتور شيرزاد القاضي نقلاً عن كتاب "الأكراد" لمهردار إيزادي إلى أن أعداداً من (مصحفي ره ش)، أي /المصحف الأسود، تعود إلى القرن الثالث عشر

(٧٣) السعدي، سمير. الحسين بن منصور الحلاج: حياته، شعره، نثره. منشورات دار علاء الدين. دمشق. ١٩٩٦. ص ١٨/٧١.

(74) Ilhan Kizilhan: Die Yeziden, Verlag medico international, Frankfurt/M. 1997, S.63.

الميلادي كانت قد كتبت باللهجة الكرمانجية الهكارية (٧٥). وبغض النظر عن فترة اكتشافه وكيف تم اكتشافه أو حتى صحة اكتشافه، فإن غالبية إن لم نقل جميع الأيزيديين مقتنعون بذلك. والباحث العراقي الدكتور سامي سعيد الأحمد، المتخصص بالأديان يحاول التشكيك بكتاب روژ بطريقة تدمج بين التحليل والتسفيه أو التهكم ويرفض التسليم بصحته (٧٦).

وجدير بالإشارة أن جميع الأديان، سواء كانت سماوية أم غير سماوية، لم تسجل كتبها المقدسة في الفترة التي تحدث بها المصلحون أو الأنبياء، بل سجلت بعد ذلك في فترات متفاوتة. فالقرآن جُمع ووحد في فترة عثمان بن عفان، إذ كان هناك عدد من حفظة ورواة القرآن، وكانت هناك اختلافات بينهم بسبب احتمال الخطأ بالنسبة للذاكرة البشرية أو لأي سبب كان. وبالتالي إتفق المسلمون على النسخة التي وضعت في عهد الخليفة عثمان بن عفان والمعترف بها حلياً من قبل جميع المسلمين في العالم. إذ قيل في حينها أن النسخ الأخرى قد جمعت وتم إتلافها للمحافظة على وحدة القرآن عند جميع المسلمين. كما إن العهد القديم قد كتب بفترات مختلفة تشير إليها نصوصه بالذات وأسلوب تناوله للقضايا التي بحث فيها، إضافة إلى تعدد الشخصيات الذين ساهموا في كتابته. ولا أجد في محاولة جمع وترتيب الكتب المقدسة للأيزيديين في الوقت الحاضر أو في وقت سابق بعد نشوء الدين أي خلل في ذات الدين أو إساءة له. إذ أن من حق رجال الدين الأيزيديين أن يمارسوا دورهم في ذلك استناداً إلى ما ورثوه من أجدادهم من حفظة تراثهم وكتبهم المقدسة. وإذا كانت الكتب المقدسة التي يجري الحديث عنها قد وجدت التأييد من المجمع الديني الأيزيدي فليس من حقنا أن نشكك به بغض النظر عن ما يقال بهذا الشأن حول العثور عليه أو اكتشافه أو غير ذلك، علماً بأن مثل هذه الأمور يمكن البرهنة عليها إيجاباً أو سلباً بالاستناد إلى عدد من المعايير المتفق عليها دولياً، مثل أسلوب

(٧٥) القاضي، شيرزاد د. لمحة تاريخية عن تأثير الديانة الأيزيدية على نشوء وتطور الفكر القومي الكردي. روژ. مجلة ثقافية دورية تعنى بالشؤون الأيزيدية. ألمانيا. مطبعة رونا هي. سبتمبر ١٩٩٧. ص ٥٣.

(٧٦) الأحمد، سامي سعيد د. البيزيدية أحوالهم ومعتقداتهم. ج ٢. بغداد. مطبعة الجامعة. ١٩٧١. ص ٢٨٨.

التدوين أو اللغة التي كتبت بها أو القضايا التي عالجتها مثلاً.

وتتضمن هذه الكتب المقدسة عند الأيزيديين قصة الوجود أو الخليفة والخالق، كما يراها الأيزيديون، وقصة نوح والطوفان وسفينته وإنقاذ المخلوقات من الفناء التام، وجملة من مبادئ وأسس العلاقات الإنسانية كالمحبة والصدق والأمانة والاحترام والسلام، والقيم الأخلاقية والسلوكية في الديانة الأيزيدية، إضافة إلى عدد من الأساطير والحكايات التي ترد عند الأديان الأخرى أيضاً وإن اختلفت أحياناً بالتفاصيل وبعض الأسماء أو المواقع مثلاً. ويصدد خلق الكون في الميثولوجيا الأيزيدية بقول بير خدر سليمان^(٧٧) في إجابته عن سؤال بهذا الخصوص نشر في مجلة "لالش" ما يلي: "لدينا العديد من النصوص الشفهية عن خلق الكون دوناً بعضاً منها عام ١٩٧٩. في البداية صنع الله درة من ذاته ونفخ فيها فاحمرت الدرّة كالنار ثم انفجرت وتحولت إلى دخان وضباب بعد ذلك تجمع الدخان شيئاً فشيئاً وبدأت الأمطار تهطل وأصبح الكون مُمتلئاً كبيراً من الماء، وجاء بعد ذلك الإله في السفينة برفقة سبعة من الملائكة لتفقد الكون ورست السفينة في لالش عندها قال الرب بحق: هذا هو المكان الصحيح ثم تحول جزء من الكون إلى جبال وغابات وأرض واستغرق ذلك أربعين سنة، أما الشظايا الأخرى فقد تحولت إلى شمس والأجزاء الصغيرة إلى قمر والأصغر إلى نجوم". ثم يواصل قوله: "جاء في إحدى النصوص: "ظل الكون مائعاً تتلاطم فيه الأمواج ولم يهدأ إلا بعد ظهور لالش عندها بانث الخضرة وتزين الكون واختلطت العناصر الأربعة الأرض والماء والريح والنار. ومن هذه العناصر خلق الله آدم وكان الله قد خلق قبل آدم الملائكة السبعة وعلى صوت الناي أتت الروح إلى جسد آدم ومن آدم خلق الله حواء وكانت إرادة الله أن لا يتكاثر في الجنة فأكلوا فاكهة على إثرها نزلوا إلى الأرض"^(٧٨). وجاء في الفصل الأول من

(٧٧) بير خدر سليمان رئيس اتحاد الأدباء الأكراد في بادينان وأحد مؤسسي مركز لاش الثقافي.

(٧٨) بيره ش. لقاء مع مثقفي الأيزيدية في لالش ودهوك. لالش. مجلة ثقافية دورية يصدرها مركز لالش باللغتين الكردية والعربية. العدد ٥. دهوك. آب ١٩٩٥. عند مطالعة النص الذي أورده بير خدر سليمان يلاحظ القارئ بوضوح بأن مضامينه لا يمكن أن تكون قديمة قدم الديانة الأيزيدية التي نبحث فيها، إذ أن فيها جملة من الأفكار الحديثة بالقياس إلى قدم الدين. ومن هنا يمكن القول أيضاً بأن <

مصنفه ره ش المقدس عند الأيزيديين حول خلق الكون ما يلي: (٧٩)

- ١- في البداية خلق الله درة البيضة من سره العزيز، وخلق طيراً أسمه أتغر وجعل الدرّة فوق ظهره وسكن عليها أربعين ألف سنة.
- ٢- أول يوم، الأحد خلق الملك عزائيل وهو طاووس ملك رئيس الجميع (*).
- ٣- يوم الاثنين، خلق الملك دردائيل وهو الشيخ حسن.
- ٤- يوم الثلاثاء، خلق الملك إسرافيل وهو شيخ شمس (الدين).
- ٥- يوم الأربعاء، خلق ملك ميكائيل وهو شيخ أبو بكر.
- ٦- يوم الخميس، خلق ملك عزرائيل وهو سجادين.
- ٧- يوم الجمعة، خلق ملك شمنائيل وهو ناصر الدين.
- ٨- يوم السبت، خلق ملك نورائيل وهو يدين (فخر الدين).
- ٩- وجعل رئيساً على الجميع، طاووس ملك، بعد ما خلق صورة السبع سموات

> تغييرات وتحديثات طرأت أو أُجريت على النصوص الشفاهية عند رجال الدين

الأيزيديين ومن قبلهم لأسباب غير معروفة تماماً.

(٧٩) لقد تم نقل المقتطف كما ورد في المجلة دون تغيير، وبغض النظر عن الأسلوب أو الأخطاء النحوية الواردة فيه.

(*) عند قراءة النص يلاحظ القارئ بأن أسماء الملائكة عند الأيزيديين هي أسماء ملائكة

ترد في الديانة اليهودية والإسلامية، في حين أن الديانة الأيزيدية لا صلة لها من حيث المنشأ بشكل مباشر أو غير مباشر بالديانتين، وفق ما لدينا من معلومات بهذا الصدد. وهذا يعني أحد احتمالين هما: أن أسماء الملائكة قد تبدلت بمرور الزمن لأسباب ارتبطت بالضغط الذي كان يتعرض له الأيزيديون في حياتهم اليومية مما أجبرهم على تسمية ملائكتهم السبعة بتلك الأسماء، خاصة وأن الأديان الفارسية القديمة تعتمد ستة ملائكة في ميثولوجيتها المتداولة، كما يلاحظ التغيير الذي طرأ على أسماء الأفراد الأيزيديين أيضاً التي أصبح بعضها يسمى بأسماء عربية وإسلامية، إذ ربما كان لذات السبب القهري، وبالتالي فأن هذه التفسيرات والنصوص ليست قديمة، وأنها وضعت في فترات لاحقة، أي في فترة شيخ عادي بن مسافر ومن جاء في وقته أو من بعده من الأولياء الصالحين.

الأيزيديين في العالم، حيث ترتفع في هذا الوادي الخصب والجميل القباب البيضاء المدببة التي تشير إلى معابد الأيزيديين. وهي التي تبعث البهجة والسرور والخشوع الديني في نفوس المتدينين من الأيزيديين.

وفي عهد الشيخ عادي بن مسافر تم وضع التراتبية الاجتماعية الراهنة لا على أساس استحداث جديد بل تشببت حالة كانت قائمة أريد تركسها في المجتمع الأيزيدي. وبنية المجتمع الأيزيدي تقوم على تقسيم طبقي ديني تراتبي شديد التصلب والجمود، إذ من الوصايا الأساسية في تلك الديانة، وفق ما وضعه وكرسه الشيخ عادي، عدم جواز خرق تلك التراتبية، رغم إن هذا لا يعني عدم حصول تجاوز على تلك المبادئ من قبل بعض السكان الأيزيديين، كما هو الحال بالنسبة لأتباع بقية الديانات.

ينقسم المجتمع الأيزيدي دينياً واجتماعياً إلى ثلاث طبقات اجتماعية دينية أو تراتبية "دينية" رئيسية هي: (٨٢)

١- الشيوخ: ومن طبقة الشيوخ تنشأ الفئات الدينية الأخرى الروحانية التي تأخذ على عاتقها عملياً الجوانب الدينية والدينية، ومنها يبرز أمير الأيزيدية الذي ينحدر من عائلة معينة تحديداً هي القاتانية. كما يأتي من هذه الطبقة بابا شيخ والپيشيما والكوجك وشيخ وزير... الخ، الذين يتحدرون من عوائل أخرى هي الادانية والشمسانية. وبهذه الطبقات أو التراتبيات الثلاث تقتنر أسماء الأولياء الصالحين مثل الشيخ حسن (سن)، شرف الدين وإبراهيم الختمي (أدانيين)، أو الشيخ شمس وشيخ فخر الدين والشيخ سجادين وناصر الدين (شمسانية)، أو الشيخ أبو بكر، الشيخ إسماعيل العنزلي، الشيخ مهدي الباطني، الشيخ عبدالقادر، الشيخ ماري (قاتانية).

٢- بييرة: وإلى هذه الطبقة أو المرتبة الدينية أيضاً تعود عوائل عريقة ومتنفذة وترتبط بالجانب الروحي والديني ومنها تنبثق مرتبة النقيب والكوجك مثلاً.

٣- المريدين: وهي فئة عامة الناس في المجتمع الأيزيدي، إنها الطبقة الاجتماعية

(٨٢) جندي، خليل د. نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية. مصدر سابق ص ٥٥-٧٠.

والأرض والشمس والقمر وفخر الدين، والأنس والحيوان والطيور والوحوش.
١٠- ووضعهم في جيوب الخرقه وطلع من الدرّة ومعه ملايكة فصاح على الدرّة صيحة عظيمة فانفصلت وصارت أربع قطع من بطنها خرج الماء وصار بحراً.

١١- وكانت الدنيا مدورة بلا فراق.

١٢- ثم خلق جبرائيل وصورة الطير وأرسل بيده ووضع أربع قراني (*).

١٣- ثم خلق مركب ونزل فيه ثلاثين. وبعد جاء وسكن في جبل لالش.

١٤- وصاح في الدنيا فجمد البحر وصارت أرض فبقت تهتز.

١٥- فعند ذلك أمر جبرائيل فجاب قطعتين من الدرّة البيضاء فوضع واحدة تحت الأرض وفي باب السماء سكنت الأخرى.

١٦- ثم جعل فيهم شمس وقمر. وخلق النجوم من نثر الدرّة البيضاء وعلقهم في السماء لأجل الزينة.

١٧- وخلق أشجار مشمرة ونباتات وجبال لأجل زينة الأرض، وخلق عرش على الفرش. (٨٠)

ويبدو للقارئ بأن مثل هذه الأفكار والتصورات حول نشوء الكون موجودة في أكثر من أسطورة أو ملحمة شعرية أو كتاب مقدس (٨١)، رغم أن الترجمة ركيكة على أساس النص الكردي.

إن هذا المقطع الطويل نسبياً المستل من كتاب "مصحف ره ش" يعطينا فكرة سريعة ومكثفة عن جملة القوى والمسائل المقدسة عند الأيزيديين ابتداءً من الخالق ومروراً بطاووس ملك وبقية الملائكة وانتهاءً بأسطورة الطوفان ولالش. ومن هنا يفترض أن نفهم أهمية وقدسية هذا المكان في الديانة الأيزيدية وتحوله إلى محج لكل

(* قراني = زوايا

(٨٠) الأحمد، سامي سعيد د. البيزيدية أحوالهم ومعتقداتهم. ج ٢. مصدر سابق ص ٢٦٤/٢٦٣.

(٨١) علي، فاضل عبد الواحد د. من سومر إلى التوراة مصدر سابق. ص ١٧٤، ١٧٨.

الكادحة والمنتجة وتنتمي إلى عشائر عديدة. ومنها يظهر القوالون الذين يتجولون في مناطق الأيزيديين للتبشير الديني في أوساطهم ولجمع التبرعات، كما يمكن أن يرتقي بعض أفراد هذه الطبقة إلى مرتبة الكوچك غير المرتبطة بطبقة معينة تحديداً.

وكما هو معروف فإن هناك قبوداً صارمة تمنع الزواج بين الطبقات الثلاث المشار إليها سابقاً. كما يفترض في كل أيزيدي أن يكون له شيخاً وبيراً ومربياً وخلاً وأخاً للآخرة. وهي من الفرائض الأساسية في هذه الديانة^(٨٣)، التي تجسد بصيغة معينة نوع من التضامن والتكافل الاجتماعي والحماية والحرص على المحبة بين الأيزيديين^(٨٤).

إن دراستي للديانة الأيزيدية تسمح لي بالخروج باستنتاجات تتفق إلى حدود بعيدة مع بعض الباحثين من الأيزيديين وبعض الباحثين المستقلين أو غير المتحيزين ضد الديانة الأيزيدية، والذين يسعون للوصول إلى حقيقة هذه الديانة. ويمكن بلورة ما

(٨٣) نفس المصدر السابق.

(٨٤) ويبدو لي ضرورياً أن نلاحظ مدى التقارب القائم بين هذه التراتبية الاجتماعية عند الأيزيديين والتراتبية الاجتماعية في المجتمعات القديمة في بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين، وكذلك بالنسبة للعلاقة مع بقية السكان الأكراد في المنطقة، رغم التحولات التي جرت في الجانب الديني، أي موضوع الزواج في داخل التراتبية الإقليمية الكردية. وهي مسألة بحاجة إلى توسع في البحث وغوص أعمق في العلاقات الاجتماعية-الاقتصادية والعلاقات الدينية. إذ أنها ورغم التحويرات في البعض من تلك العلاقات، فإنها تشير إلى العلاقات التي كانت تسود في دويلات المدن البابلية والآشورية أو الميديّة القديمة، خاصة العلاقة بين الملك والموقع الديني في المجتمع المديني القديم وبين الأمير وموقعه الديني عند الإيزيديين، وبين الكهنة في المجتمع البابلي والآشوري وبين رجال الدين في المجتمع الأيزيدي، وأخيراً بين الأحرار والمنتجين في تلك المجتمعات وبين فئة الميردين في المجتمع الأيزيدي. إلا إن هذا لا يعني وجود تطابق، بل أن هناك مجموعة من الاختلافات أيضاً، وبشكل خاص بين انفتاح تلك المجتمعات السومرية والبابلية والآشورية والكلدانية وبين الانغلاق في المجتمع الأيزيدي القديم والحديث. (ك.ح.)

توصلت إليه في النقاط التالية:

- إن الديانة الأيزيدية واحدة من أقدم الديانات التي ظهرت في منطقة ميسوپوتاميا والشرق الأوسط، إنها عريقة في القدم ولها أواصر صلة مع بعض الديانات التي برزت في فترات ما قبل الديانات التي تسمى بـ"السماوية" أو الكتابية. وربما ستكون للدراسات الأركيولوجية القادمة القائمة على أسس علمية في العراق الحديث وفي مناطق كُردستان في كل من إيران وتركيا وسوريا ولبنان أن تتوصل إلى البرهنة على هذه الحقيقة أو منحنا معلومات إضافية تساعد في بلورة استنتاجات أكثر نضوجاً وقرباً من الواقع.

- إن الديانة الأيزيدية لا تمت بصلة لا من قريب ولا من بعيد، مع الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية، فهي ديانة مستقلة من جهة، ومتشابهة مع ديانات قديمة مثل الديانات السومرية والأكدية والبابلية والآشورية أو الكلدانية أو الميثرائية أو الزرفانية أو المزدكية أو المانوية وغيرها من جهة أخرى.

- ولكن هذا لا يعني بأن الديانة الأيزيدية لم تتأثر بتلك الديانات أو لم تأخذ عنها بعض طقوسها وعاداتها قسراً أو بحكم الاحتكاك أو بهما معاً، بل هذا ممكن ويمكن ملاحظته بعدد من الظواهر المهمة، بما فيها قصة الخليفة أو ربما الختان والتعميد أو بعض الأسماء أو غيرها.

- كما أن هذه الديانة التي اعتمدت على الحفظ الموروث الشفاهي عبر الأجيال بشكل كامل تقريباً، قد تعرضت للتطور والتغير البطيء وبشكل نسبي محدود في جانب الطقوس والعادات والتقاليد. ولكن أبرز ما وقع عليها من تغيير يشمل بالدرجة الأولى مسألة الموقف من الآلهة المتعددة والإله الواحد بثنائيته أو الثنوية في الإله الواحد، وأن عدداً من تلك الآلهة اتخذت صفة الملائكة والأولياء الصالحين. فالأساس واحد والقاعدة واحدة وأن تغيرت الصيغة التي جرى التعبير عنها وممارستها.

- ويبدو لي بأن هذه الديانة التي قاومت صروف الزمان وحافظت عليها أتباعها طيلة القرون الكثيرة المنصرمة ستبقى قائمة، كما هو حال بقية الديانات، بما فيها من خيال وأوهام وخرافات وأساطير وبقية مكونات الميثولوجيا الأيزيدية التي تجسد في

واقع الحال المراحل التاريخية التي عرفها تطور المجتمع الأيزيدي في القرون المنصرمة حتى الوقت الحاضر.

- إن استمرار وجود ديانة معينة لا يعتمد على عدد أتباع هذه الديانة بل على مدى تمسك هؤلاء بديانتهم وقناعاتهم وبمستوى تطور المجتمع الذي يشكلون جزءاً منه ووعي أفراد هذه المجتمع. كما سيلعب دوراً مهماً في المستقبل مدى قدرة أتباع هذا الدين التناغم والانسجام مع التحولات الهائلة الجارية في عالم اليوم، التحولات التقنية والمعلوماتية التي ستضع أتباع هذه الديانة أمام ظواهر وحقائق مهمة تستوجب منهم التجديد والتحديث. وهي مشكلة لا تواجه الدين الأيزيدي وحده، بل تواجه جميع الأديان التي لم تشهد حتى الآن ما يطلق عليه بعمليات التنوير -Aufklarungsprozess.

- إن الديانة الأيزيدية تشترك مع الديانات القديمة على نحو خاص، ولكن مع الديانات الحديثة بقدر ما في كونها ديانة:

* ذات طقوس عامة ومشاركة تؤدي بصورة جماعية بمشاركة أساسية من رجال الدين والقوالمين، ما عدا الصلاة حيث تؤدي بصورة فردية.

* وهي في الوقت نفسه تقوم على أساس التراتبية الطبقية أو الاجتماعية، حيث يقوم رجال الدين بتراتبيتهم المختلفة أساساً بأداء الطقوس الدينية التي تختص من حيث المبدأ بخدمة الطاووس، في حين أن العامة من الناس يؤدونها بالتبعية وعبر الطقوس الجماعية المشتركة. وهي ظاهرة لها جذورها في ديانات ما بين النهرين (٨٥).

* إن المهمات الدينية للأفراد عموماً محدودة وغاية في البساطة ولكنها ملزمة من جانب ومحددة في مواقع معينة من جانب آخر. من هنا ورغم وجود بعض المحرمات على الأفراد الأيزيديين، إلا أن الأمير ورجال الدين هم الذين يفترض فيهم أن يؤدوا الطقوس الأساسية في الاحتفالات العامة والأعياد وما إلى ذلك، كما إن عليهم أن

(٨٥) وبنهايم، ليوا. بلاد ما بين النهرين. ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق. ط ٢. وزارة الثقافة والإعلام - دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ١٩٨٦. ص ٢٢٦ / ٢٢٧.

يلتزموا بمحرمات معينة.

* ويلعب طاووس ملك أو يؤدي دوراً أساسياً في مجتمع الديانة الأيزيدية، باعتباره أساس العلاقة القائمة بين الفرد الأيزيدي والأمير ورجال الدين بمختلف رتبهم، إنه رمز الديانة وأساسها وقاعدتها في آن واحد، إنه الشمس الذي تتوجه إليه الصلاة صباحاً نحو الشرق (الإشراق) وظهراً (نحو معبد لالش عندما تتوسط الشمس السماء) ومساءً نحو الغرب حيث مغيبها، إنه دعاء الصباح والظهيرة والعشية أو الغروب، وحيثما تجتهد الشمس اتجهت عيون ومشاعر ودعاء الأيزيدي.

الفصل الثالث:

الأيزيديون في العهد الإسلامي

المبحث الأول: في العهد العباسي

تشير الوقائع التاريخية إلى أن الفتح الإسلامي لمناطق الفرس والأكراد قد تميز بالعرف والمعارك الدموية والمقاومة العنيفة وسقوط ضحايا كثيرة جداً من الفرس والأكراد، وكذلك من الفاتحين العرب. إذ أن العمليات العسكرية حينذاك لم تكن فتحاً للأرض واحتلالاً لها وحسب، بل اقترنت بعمليات واسعة ومتنوعة استهدفت بإصرار تحقيق التحويل القسري للسكان للفرس والأكراد والأنباط أو العرب في المنطقة من أتباع الديانات المختلفة، بمن فيهم الميثرائيين والمزدكيين (الزردشتيين) أو المانويين أو الأيزيديين أو (بصورة أخف باعتبارهم ذميين) المسيحيين أو غيرهم من أتباع ديانات المنطقة، إلى الدين الإسلامي أيضاً. ولم تتم هذه العملية في فترة قصيرة، بل استمرت طوال ثلاثة قرون تقريباً^(٨٦)، حيث استخدمت فيها شتى الأساليب التي ترفضها حتى الأديان السماوية، بما فيها الدين الإسلامي، الذي يقر بحق الآخرين في اعتناق أديان أخرى حيث جاء في القرآن، بصددهم من إعتبارهم من الكافرين، في سورة "الكافرون" قوله: "قل يا أيها الكفرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين"^(٨٧).

(٨٦) تشير المعلومات المتوفرة إلى أن الإسلام قد تعامل مع المسيحيين ولفترة غير قصيرة على أساس أنهم من أهل الذمة الذين يحصلون على حماية الدولة الإسلامية على أن يدفعوا الجزية. وقد ساعد هذا في أن يحافظ المسيحيون على ديانتهم بعد ظهور الإسلام وعقدوا موثيق أمان مع الفاتحين أو المحتلين الجدد لبلاد الرافدين من العرب ولم يواجهوا تمييزاً كبيراً في بداية الأمر ولعبوا دوراً متميزاً في الحياة الثقافية والاقتصادية والمالية في عراق العباسيين على نحو خاص. إلا إن هذا الأمر لم يستمر طويلاً حيث بدأت سياسة التمييز إزاء المواطنين المسيحيين واليهود وغيرهم بشكل واضح منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي لأسباب دينية وسياسية.

(٨٧) القرآن. مصحف المدينة النبوية. سورة الكافرون. الجزء الثلاثون. ص ٦٠٣.

لا شك في أن قادة المسلمين مارسوا تكتيكات متباينة في بداية الدعوة وبعد استتبابها، إذ كانت الجهود في البداية موجهة إلى الفتح الواسع وتحييد من يمكن تحييده لإضعاف المقاومة، ومن ثم البدء بالكسب الأوسع والتحويل صوب الديانات الإسلامية باعتبار محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، بعد استتباب الوضع للمسلمين الفاتحين.

لقد بدأ الفتح الإسلامي لبلاد فارس في سنة ١٦ للهجرة (٦٣٧م) بقيادة سعد بن أبي وقاص. وكان هذا الفتح بداية لسلسلة من المعارك والحروب الطاحنة بين السكان الأصليين من الفرس والكرد أو غيرهم وبين الفاتحين والمحتلين الجدد من المسلمين القادمين من الجزيرة العربية. ولم يكن النصر فيها باستمرار للعرب، بل كان فيها كراً وفرّاً، سواء في عهد الخلفاء الراشدين أم في العهدين الأموي والعباسي. وأصبحت مناطق كردستان ساحة معارك دامية وعلى امتداد تلك العهود، رغم أن كثرة من الأكراد قد تحولت عبر السنين وتحت تأثيرات كثيرة إلى الديانة الإسلامية. وبسبب معارك الفتح الإسلامي وتوطيد الاحتلال وتوسيع رقعة الدولة الأموية والعباسية سقطت ضحايا هائلة من سكان البلاد الأصليين ومن المسلمين العرب ومن المسلمين من غير العرب الذين شاركوا في تلك المعارك التبشيرية والتوسعية ومن أبناء المناطق ذاتها أحياناً غير قليلة^(٨٨).

ورغم أن بعض قادة قوات الإسلام استخدم مختلف الأساليب بعد الفتح لكسب الناس إلى دين محمد، فإن توطيد الاحتلال وفرض الهيمنة السياسية والدينية على أبناء المنطقة لم يكن سهلاً وشهد الكثير من الانتفاضات والثورات والتمردات. كما أن جزءاً من أبناء المنطقة، سواء كانوا من الكرد أم من أبناء الشعوب الأخرى، رفض الدين الإسلامي وحافظ على ديانتهم القديمة. وكان الأيزيديون من هذا الجزء الرفض. وتشير المعلومات التي تحت تصرفنا إلى أن هذا الإصرار الطبيعي والمنطقي للأيزيديين في البقاء على دينهم قد جرّ عليهم الكثير من الويلات والمآسي التي اقترنت بصدور فتاوى عن بعض رجال الدين ضدهم، وكانت باتجاهين أساسيين هما:

١- اعتبارهم من الكافرين وعبدة إبليس. ومثل هذه الفتوى تفرض على المسلمين

(٨٨) محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، مصدر سابق، ص ١٢١-١٥٨.

منازلتهم وإخضاعهم للإسلام حتى لو تم ذلك بشن الحرب وممارسة الاضطهاد.

٢- اعتبارهم يشكلون واحدة من تلك الفرق الإسلامية الخارجة على أسس وقواعد الإسلام أو مرتدة عنه والتي يحل دم أفرادها على المسلمين، أو تويتهم وعودتهم إلى الإسلام. وقد اتهموا مرة بأنهم من أتباع يزيد بن معاوية، وأخرى كونهم من الخوارج أو الأباضية، ومرة ثالثة على أنهم من الشيعة أو الرافضة.

وأولى تلك الفتاوى التي صدرت بهذا الصدد، كما يشير إلى ذلك المؤرخون، كانت في القرن التاسع الميلادي أو الثالث للهجرة ونسبت إلى الإمام محمد بن حنبل والإمام أبي الليث السمرقندي، كما أشير إلى ذلك سابقاً^(٨٩).

تشير المصادر المتوفرة لدينا إلى أن مقاومة الأكراد الأيزيديين للهيمنة العباسية على مناطقهم والسعي لضمان سيادتهم على مناطقهم لم تنقطع في العهد العباسي، خاصة وأن بعض الحكام الذين كانوا يتولون حكم المنطقة، كانوا يعاملون الناس بفظاظة وعنف وقسوة بالغة. وكانت تلك الحركات الثورية تجابه بالقوة وممارسة العنف الشديد ضد المشاركين فيها. وكان السكان يتعرضون إلى مذابح همجية ويتكبدون خسائر فادحة. فعلى سبيل المثال لا الحصر تمكن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في عام ١٤٨ هجرية ٧٦٣ م من قمع حركة ثورية للسكان الأكراد الأيزيديين في جبل داسن في كردستان الجنوبية بعد أن وجه لمحاربة الثوار حملة عسكرية واسعة بقيادة خالد البرمكي. وكانت الحركة تطالب بالسيادة على منطقتها وتتصدى للاضطهاد الذي ابتلت به من جانب الحكام العباسيين وتمكنت من توسيع مساحة الأرض التي كانت بحوزتها واستولت على مدينة الموصل وضواحيها^(٩٠).

وبعد مرور ما يقرب من ٧٦ عاماً على تلك الحركة، أي في عام ٢٢٤ هجرية ٨٣٩ م وفي فترة حكم الخليفة المعتصم، تفجرت حركة ثورية واسعة أخرى وفي نفس المنطقة ومن قبل الغالبية الأيزيدية التي تقطن في جبل داسن والمناطق المحيطة به لمواجهة السياسة التعسفية لولاة الدولة العباسية في المنطقة. وكان قائد هذه الحركة

(٨٩) سامي سعيد الأحمد: اليزيديون، مصدر سابق، ص ٢٧-٤١

(٩٠) توفيق، زرار صديق. موضوعات حول تاريخ اليزيدية واليزيديين. مجلة لالش. العدد

١١٤ / ٥. ١٩٩٥. دهوك. ص

السياسية والدينية الثورية الأمير الأيزيدي جعفر بن مير حسن الكوردي الداسني المنحدر من منطقة بادينان. ويبدو أن الحركة لم تقتصر على الأيزيديين من الأكراد، بل شملت جمهرة واسعة من الأكراد المسلمين أيضاً، إذ إنها كانت تطالب بالسيادة على المنطقة في إطار الدول العباسية. وقد تمكنت هذه الحركة أن تصمد بوجه الحملة العسكرية العباسية التي جهزها المعتصم بقيادة عبدالله بن السيد أنس الأزدي وتمكنت من دحر القوات العباسية. إلا أن المعتصم جهز حملة عسكرية جديدة بقيادة إيتاخ القائد التركي، توجهت إلى جبل داسن معقل الثوار الأكراد. ويبدو أن معارك دامية دامت أكثر من عام واحد تمكن القائد التركي بعدها من دحر القائد الكردي الذي تجرع السم رغبة منه في أن لا يقع أسيراً بيد الأعداء. ونقلاً عن ابن الأثير فإن القائد التركي إيتاخ وجيوشه قد أوقعوا بالكرد، بعد مقتل قائدهم جعفر، فأكثر القتل فيهم واستباح أموالهم وحشر الأسرى والنساء والأموال وسيورها إلى تكريت^(٩١).

ذكر عبدالرزاق الحسني في كتابه عن الأيزيدية نقلاً عن كتاب ابن الفوطي الموسوم بـ"الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة" بأن بدر الدين لؤلؤ قام في عام ١٢٥٤م ٦٥٢ هجرية، أي قبل غزو المغول لبغداد بأربع سنوات، بنبش قبر الشيخ عادي بن مسافر وأخرج جثمانه وأحرق عظامه^(٩٢). ولم تكن مثل هذه

(٩١) نفس المصدر السابق. ص ١١٥

(٩٢) نفس المصدر السابق. ص ٨٣.

ملاحظة: لا بد من الإشارة هنا إلى أن عمليات نبش القبور وإخراج بقايا عظام الميت وإحراقها تتنافى مع تقاليد وأعراف كل الأديان، إذ أن للميت حرمة بشكل عام. ولكن مورست هذه العملية في التاريخ كثيراً، ولجأ إليها الكثير من الحكام والولاة أو المحاربين والأشقياء بشكل استفزازي وتعسفي مرفوض ومن مواقع القوة والجهل. وقد وقع هذا الأمر لا بالنسبة للأولياء الصالحين في الديانة الأيزيدية، بل شملت الأولياء الصالحين في الديانات الأخرى أو الطوائف الأخرى في الإسلام. ومن شأن هذه الأعمال المجافية للأخلاق والأعراف إثارة النزاعات الدينية والأحقاد والابتعاد عن الاعتراف والاحترام المتبادلين بين الديانات المختلفة أو من جماعات دينية إزاء جماعات دينية أخرى. وهو بالضبط ما وقع لقبر الشيخ عادي بن مسافر من قبل جماعات متعصبة ومنتزعة وغير واعية ومسيئة في آن.

الإعمال المخزية سوى تعميقاً للخلافات وإساءة متعمدة غير مبررة لأتباع الديانة الأيزيدية وحرمانهم من حقهم المشروع في أن تكون لهم طقوسهم وشعائرهم الدينية وتقاليدهم وقبور أوليائهم الصالحين يقومون بزيارتها والتبرك بها، كما يفعل أتباع الكثير من الديانات والمعتقدات في العالم منذ آلاف السنين.

المبحث الثاني: الأيزيديون في العهد العثماني

تؤكد المصادر المختلفة التي بحثت في أوضاع الأيزيدية في فترة الحكم العثماني والمماليك ثم الحكم العثماني الثاني في العراق إلى أن الشعب الكردي عموماً والأكراد الأيزيديين خصوصاً قد عانوا الأمرين على أيدي الحكام والولاة والجنדרمة العثمانية أو من حكم باسمهم، سواء كانوا من الأتراك أم العرب أم الأكراد، طيلة القرون الأربعة التي حكم العثمانيون فيها المنطقة (٩٣). وهذه الحقيقة ارتبطت، كما تبدو للباحث بمجموعة من الخصائص التي تميز بها الحكم العثماني في العراق وفي عموم المناطق التي كانت تحت الاحتلال العثماني والتي يمكن بلورتها في النقاط التالية:

١- الطبيعة الشيوقراطية - الإقطاعية التي ميزت نظام الحكم العثماني والتي

(٩٣) كان الاحتلال العثماني الأول للعراق قد بدأ في عام ١٥٣٤م واستمر من حيث المبدأ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى بعد أن جرى احتلال بغداد وخسرت الدولة العثمانية الحرب، وأصبح العراق جزءاً من المستعمرات البريطانية في منطقة الشرق الأوسط. إلا أن بغداد سقطت مرة أخرى بيد الصفويين في عام ١٦٢٣م في فترة حكم الشاه الإيراني عباس الصفوي. وفي عام ١٦٣٨ تمكن السلطان مراد الرابع من إعادة احتلال بغداد وإخراجها من أيدي الصفويين، علماً بأن محاولتين سابقتين كانتا قد فشلتا في تحقيق هذا الهدف. وفشلت محاولات نادر شاه في احتلال بغداد والموصل ومعهما كل العراق حتى تم عقد وتوقيع اتفاقية الصلح في عام ١٧٤٧م بين الدولة الصفوية في أيام حكم نادر شاه والدولة العثمانية في فترة حكم السلطان محمود الأول. ومع ابتداء تولي سليمان باشا الكبير الولاية على بغداد إضافة إلى البصرة في عام ١٧٤٧ حتى بدأ عهد المماليك الفعلي في العراق والذي استمر حتى عام ١٨٣١ بسقوط الوالي داود باشا وتنظيم مذبحه المماليك، على شاكله مذبحه الإنكشاريين. وعاد العراق تحت الحكم العثماني المباشر مرة أخرى في عهد السلطان العثماني محمود الثاني.

تجلت بتفاهم عمليات استغلال المجتمعات التابعة لهذه الدولة المترامية الأرجاء، والذهنية الرجعية والتخلف الحضاري اللذين سادا في صفوف الحكام والولاة وأجهزة الدولة والقوات المسلحة، إلى جانب الإساءة للدين من خلال التعصب غير العقلاني ومحاولة الظهور بمظهر الملتزم بأصول ودعائم الدين الإسلامي والمدافع عنه.

٢- السعي بمختلف السبل للتدليل على أنهم من أشد المتحمسين للإسلام والمناهضين لغير المسلمين والسعي بمختلف السبل لتحويل أتباع الديانات الأخرى إلى الإسلام. وقد ارتكبت في مجرى القرون الأربعة المديدة في هذه المنطقة الكثير من الانتهاكات ونظمت الكثير من المجازر البشرية ضد أتباع الديانات الأخرى وبخاصة ضد الأيزيديين والأرمن والآشوريين أو عموم المسيحيين. فما تزال في الذاكرة تلك الجرائم والمجازر البشعة التي ارتكبت بحق الأرمن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين حيث سقط عشرات ألوف الضحايا برصاص الجيش والجنדרمة والمتعصبين الأتراك (٩٤).

وقد جرى كل ذلك في تركيا في فترتي حكم السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) والسلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٩-١٩١٨) وقرارات من السلاطين أنفسهم.

٣- وكان التعصب القومي والشوفينية المغالية والتمييز العنصري والديني من بين أبرز الخصائص التي ميزت الدولة العثمانية وتجلت في سياساتها إزاء الأقوام والشعوب والأديان والطوائف الأخرى التي كانت تئن تحت وطأة الاحتلال العثماني. ومن هنا جاءت أيضاً معاناة الأيزيديين مزدوجة، فهم أيزيديون من جهة وأكراد من جهة أخرى، شملتهم سياسة التمييز القومي والديني على نطاق واسع ومستمر.

٤- وزاد في الطين بلة تفسخ الدولة العثمانية وانتشار الفساد والحكم القرقوشي في أرجاء الإمبراطورية الواسعة. فكانت حالات النهب والسلب والسرقة والرشوة والاعتداء والاعتصاف وشن الحروب والسجن ومصادرة الأموال والأراضي والممتلكات والعقوبات الاعتبارية والقتل الواسع النطاق والحملات العسكرية التي

(٩٤) غازاريان، هايكازن. وثائق تاريخية عن المجازر الأرمنية عام ١٩١٥. ترجمة نزار خليلي. سلسلة دراسات ووثائق المجازر الأرمنية - ٤. دار الحوار للنشر والتوزيع.

ط١. حلب. ١٩٩٥.

كانت الجندرية العثمانية والجيش العثماني ينظمانهما وينفذانها ضد القرى والمدن في المناطق التي تقع في حدود العراق الحديث من بين أبرز أوجه الحياة اليومية في الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، بما فيها منطقة كُردستان التي كانت تحت الاحتلال العثماني. يضاف إلى كل ذلك انتزاع خيرات هذه المنطقة واستغلال سكانها على أساس اقتطاع حصة بيت المال أو الخمس أو الجزية وإتاوات غير رسمية وغير شرعية وغير ذلك. علماً بأن هذه المنطقة، رغم إمكانياتها المادية غير القليلة كانت فقيرة حيث كان البيوس المدقع نصيب الغالبية العظمى من العائلات الأيزيدية والكردية عموماً. وكان شيوخ العشائر والأغوات والحكام المحليين ورجال الدين ينتزعون الكثير جداً من القليل الموجود عند سكان المنطقة.

لقد تعرض الأيزيديون في فترات مختلفة من الحكم العباسي ولكن بشكل خاص في أواخر هذا الحكم وفي أعقاب الغزو المغولي والدويلات التي نشأت بعد الغزو، ثم على امتداد الحكم العثماني وحكم المماليك والحكم العثماني الثاني في العراق إلى اضطهاد وعسف شديدين ومتواصلين تقريباً. وقد برز على نحو خاص في خمسة أشكال متميزة:

- صدور فتاوى دينية عن علماء دين مسلمين في الدولة العثمانية والدولة الفارسية أو بعض علماء الدين العرب والأكراد وضعت الأيزيديين في خانة المرتدين عن الدين الإسلامي والكافرين به الذين يحل على المسلمين دمهم. وهذا يعني أن رجال الدين وضعوا بيد السلاطين والحكام وبيد كل مسلم ومسلمة أداة قهر وابتزاز وقتل موجهة ضد الأيزيديين دون وجه حق. ومن المفيد أن نورد بعض فقرات من تلك الفتوى لتكشف عن الطبيعة التعصبية والاستعداد للإنساني من جانب أصحاب الفتوى إزاء الأقلية الأيزيدية. فقد جاء في كتاب عباس العزاوي "تاريخ البيزيدية وأصل عقيدتهم" نص فتوى صادرة عن الشيخ عبدالله الرتيكي المتوفى سنة ١١٥٩ هجرية الموجودة في المكتبة السليمانية، المهداة من نعيم بك آل بابان إلى إسماعيل حقي بك الأزميري. وجاء في نص هذه الفتوى الدينية ما يلي: "إعلم أنهم متفقون على أباطيل من عقائد وتأويل كلها مما يوجب الكفر العتيد والضلال العنيد. فمنها أنهم ينكرون القرآن والشرع ويزعمون أنه كذب وأن مثل هذيانات الشيخ فخر هي المعتمد عليها والتي يجب أن يتمسك بها ولهذا يعادون علماء الدين ويبغضونهم بل

إن ظفروا بهم يقتلونهم بأشنع قتل... ولا خفاء في أن هذه المذكورات كلها مما يوجب أشنع الكفر وأقبحه فهم إذن كفره أصلية كما نقل عن بعض كتب المذهب ونسب إلى أصل المذهب فانه نقل عن كتاب المتفق والمختلف إن الظاهر من مذهب مالك أنه إذا ظهر أحكام الكفر في بلدة تصير دار حرب وهو مذهب الشافعي وأحمد (رض) واتفقوا على أموالهم. ... قال في الأنوار: "توبة المرتد وإسلام الكافر أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويتبرأ من كل دين يخالف الإسلام ويرجع من كل اعتقاد هو كفر" هذا معلوم لو أجبروا وأكروهوا وأوعدوا بكل مكروه لم يتبرأوا عن معتقدتهم في عدي ويزيد ولالاش وغير ذلك من شيوخهم، ومنه رأيهم على أنهم زنادقة وتوبة الزنديق لا تقبل في وجهه. (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) الآية (٩٥).

ولكن ماذا نستخلص من هذه الفتوى الصادرة عن عالم دين مسلم إزاء مجموعة بشرية تؤمن بديانة أخرى وتمارس طقوساً أخرى تختلف عن دين وطقوس الإسلام؟ فصاحب الفتوى يؤكد دون وجه حق ما يلي:

- * اعتبار أتباع الديانة الأيزيدية كفره وزنادقة من النوع الذي لا تقبل تويتهم، ويستشهد في ذلك على كتابات الشافعية والمالكية وغيرهم.
- * وأنهم ينكرون القرآن والشرع ويزعمون أنه كذب.
- * وأنهم يقومون بقتل المسلمين ببشاعة منقطع النظير.
- * وأنهم يرفضون التخلي عن معتقداتهم وطقوسهم وشيوخهم.
- * وعلى هذا الأساس فأن ديارهم تصيح ديار حرب وقتلهم يصيح واجباً دينياً كما تصيح أموالهم وما يملكون ملكاً حلالاً للمسلمين!

ومن هنا يتبين للقارئ مدى القسوة والظلم والابتعاد عن الاعتراف بالأديان الأخرى وعدم التسامح الذي تميزت به لا الفتوى وحدها، بل العهد أو الحكم العثماني بكامله. وفي الوقت الذي كان الجندرية وغيرهم يقومون بقتل الأيزيدية يتهم كل الأيزيديين بقتل المسلمين، في حين لا يمكن أن يخلوا أي مجتمع من المجتمعات من

(٩٥) العزاوي، عباس. تاريخ البيزيدية وأصل عقيدتهم. بغداد. مطبعة بغداد. منصف الثلاثينات من القرن العشرين. ص ٨٤-٩٠.

بعض القتلة الذين يعتدون ويسرقون ويقتلون أناساً أبرياء أيضاً، ولكن لا يجوز تعميم ذلك على الأيزيديين، كما لا يجوز تعميم الممارسات غير الإنسانية التي مارسها الحكم العثماني إزاء الأيزيديين وكأنها ممارسات كل المسلمين في إطار الدول العثمانية حينذاك أو في عراق ذلك الزمان. فسياسة السلاطين والولاة والحكام في الدولة العثمانية حينذاك وكذلك في الدولة الفارسية قد اعتمدت التمييز الديني التي اقترنت بعدوانية شديدة. وقد مارس هذه السياسة المخالفة للشرع العديد من الأمراء والأغوات الأكراد المسلمين أيضاً.

- تدمير أو حرق المعابد الدينية للأيزيديين ونهب القبور وقتل القائمين عليها وفرض الإسلام عليهم بالقوة، من خلال شن الحملات العسكرية التي كانت تنظم من قبل الولاة والحكام وبعض رجال الدين المسلمين والأمراء والأغوات الأكراد.

- مطاردة الأيزيديين وقتلهم وسبيهم بشكل شرس لا يعرف الرحمة في محاولة لتصفية هذه الأقلية الدينية الكردية في كردستان عموماً، كما إنها موجهة أساساً ضد أولئك الذين كانوا يمارسون الطقوس الدينية أو الذين يسعون إلى جمع التراث الديني والشعبي الأيزيدي وتوثيقه والمحافظة عليه، إضافة إلى حرق أو إتلاف ما يقع تحت أيديهم.

- محاولة استخدام وجود فرق أو جماعات إيزيدية تقوم بأعمال النهب أو السلب لشن حملات إبادة واسعة تبتعد عن حجج تأديب المتمردين أو عصابات النهب والسلب والاعتداء على القوافل والسابلة في المناطق الجبلية من كردستان، علماً بأن هذه الظاهرة لم تكن مقتصرة على مجموعات من الأيزيديين الأكراد، بل كانت تقوم بها عصابات من العرب والأكراد من المسلمين أيضاً في مناطق مختلفة من العراق.

وقد تسببت هذه السياسة العدوانية ضد الأيزيديين بحدوث الكثير من التمردات والانتفاضات المشروعة ضد الولاة والحكام وكل مضطهدي الأيزيديين. إذ أن الجهل بمضمون وأبعاد واتجاهات الديانة الأيزيدية من جانب السلاطين والحكام والولاة والغالبية العظمى من الناس أيضاً من جهة، والتعصب والتزمت الديني وعدم التسامح لدى الغالبية العظمى من السلاطين والولاة والحكام ولدى كثرة من السكان المسلمين إزاء الأديان الأخرى عموماً والأيزيدية بشكل خاص من جهة ثانية، قد لعب

دوراً كبيراً في وقوع مجاز دموية رهيبية لا يمكن للإنسان السوي أن يستوعبها أو يرضى بها. إنها تذكر بأساليب القرون الوسطى حيث كانت تمارس تلك الأساليب ضد حملة الرأي أو الديانة الأخرى مثلاً. وهي صفحة سوداء في تاريخ الدولة العثمانية وفي تاريخ كل الذين مارسوها ضد المواطنين والمواطنات الأيزيديين. ورغم أن مثل هذه الجرائم لا يمكن ولا يجوز نسيانها ولا يمكن لأي اعتذار أن يمحوها من الذاكرة، فإن الحاجة ماسة إلى تقديم اعتذار عام عن كل ما حصل بحق هذه الأقلية الدينية بغض النظر عن تصورات كل منا ومواقفه وتقديره لطبيعة ومضمون هذه الديانة العريقة جداً في هذه المنطقة من العالم، في بلاد ما بين النهرين، إذ أن لكل إنسان الحق الكامل في اعتناق أو اعتقاد أو الإيمان بأي دين كان وله الحق في ممارسة طقوسه وتقاليده دون قيد أو شرط، كما إن عليه الاعتراف بوجود الأديان والمعتقدات الأخرى واحترام أتباعها. فالأيزيديون في العراق يشكلون مجموعة دينية تعتبر من بين أقدم المجموعات البشرية التي تقطن العراق، كما هو الحال مع الصابئة المندائيين في العراق.

لقد أدى اعتبار الأيزيديين من "الجماعات المسلمة التي ارتدت عن الإسلام" والادعاء بأن الجماعة قد اتخذت من عبادة إبليس عقيدة لها، دون إدراك ووعي لميثولوجيا ورموز ومضامين وقيم الديانة الأيزيدية، سبباً كافياً لتنظيم اعتي المجازر الدموية ضد هؤلاء المواطنين والمواطنات الأكراد. وتشير المعلومات التي بين أيدينا إلى أن الحكم العثماني كان المسؤول الأول والمباشر عن إعطاء الأوامر بتلك المجازر، إضافة إلى شراسة الحكام المحليين في تنفيذها، بغض النظر عن المنحدر القومي لهم. يشير الدكتور جاسم الياس مراد إلى أن معاداة الأيزيدية من قبل الدولة العثمانية أدت إلى تعرض الأيزيديين إلى ٧٢ حملة إبادة نظمها القوات العثمانية ضددهم وتسببت في هلاك عشرات الألوف منهم وإلى إدخال الكثيرين في الدين الإسلامي أو الهروب من المنطقة، أو أخذهم أسرى (٩٦).

(٩٦) بيره ش. لقاء مع مثقفي الأيزيدية في لاش ودهوك. منشور في مجلة لاش العدد ١٩٩٥/٥. دهوك. آب/١٩٩٥. ص ١٢٥

ويشير الباحث زهير كاظم عبود في كتابه الموسوم "لمحات عن اليزيدية" إلى عدد كبير من تلك المجازر، كما يورد معلومات مهمة عنها، رغم إنها غير كاملة^(٩٧).
ومن المفيد أن نورد هنا نماذج من ذلك العسف ضد الأيزيديين.

يشير المؤرخ عباس العزاوي في كتابه "تاريخ اليزيدية وأصل معتقدتهم" نقلاً عن كتاب تقي الدين أحمد بن علي المقرئ الموسوم "السلوك لمعرفة دول الملوك" إلى حملة الإبادة التي تعرض لها الأيزيديون في عام ١٤١٤ م ٨١٧ هجرية بما يلي: "في هذه السنة حُرق قبر الشيخ عادي الكائن في حكار من بلاد الكرد. قد تجمع هؤلاء على قبره وقد سمو بالعدوية فاتخذوه قبلة لهم. وهم كثيرون... وصار يتهاقت الناس لزيارته. وهؤلاء عقبوا سلوك هذا الشيخ. وصار محل اعتمادهم واحترامهم... ولما تجاوزوا الحد... قام عليهم جلال الدين محمد بن عزالدين يوسف الحلواني من الشافعية من فقهاء إيران، فأغرى الأمراء بالقيام عليهم ودعاهم لمحاربتهم. وأجاب دعوته كل من حاكم جزيرة أبن عمر (أمير عز الدين البختي) وجماعة من الأكراد السندية مع حاكم شراش وأمير توكل الكردي. وأيضاً أرسل حاكم حصن كيفا جيشاً لمساعدتهم وكذا التحق بهم أمير شمس الدين محمد الجردقلي. بهذه القوة العظيمة هاجموا جبل هكار وقتلوا الكثير من أتباع الشيخ عادي، وقد أسر جماعة من أتباع الشيخ عادي ممن يسمى (بالصحبانية) ثم جاؤا إلى قبر الشيخ عادي لأجل هدمه فوصلوا قرية شرالق (وفي الكتب الأخرى يسمى لالش أو ليلش) فهدموا قبسته وحفروا القبر فأخرجوا عظامه وأحرقوها بمرأى من القوى الصحبانية وقالوا لهم انظروا عظام من تدعون ألوهيته كيف تحترق ولا يستطيع أن يمنعنا واغتنموا غنائم كثيرة. ولما عادوا عن النهب اجتمع الصحبانية وعمروا القبة من جديد وعادوا إلى ما كانوا عليه من عاداتهم القديمة"^(٩٨).

ولم يقتصر الأمر على حرق الضريح ونهب القبر وتهديم بناء القبة فقط، بل

(٩٧) عبود، زهير كاظم. لمحات عن اليزيدية. بغداد. مكتبة النهضة. ١٩٩٤. ص ٦٠-٩١.

(٩٨) العزاوي، عباس. تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم. بغداد. مطبعة بغداد. منتصف الثلاثينات من القرن العشرين. ص ١١٢/١١٣.

تصاعد فشمل قتل خدم المرقد والتنكيل بهم. واعتبر هذا الفعل من "الأعمال البطولية الجليلة!" بدليل عدم استنكاره من قبل رجال الدين في حينها أو من قبل من كتب عن هذه الحادثة والجريمة البشعة. وقد تمت هذه الحملة ضد الأيزيدية على أيدي الحكم الإيراني حينذاك.

ويلاحظ المتتبع للسياسات الإرهابية التي تعرضت لها الأقلية اليزيدية الكردية بأن الأيزيديين تعرضوا في فترة الحكم العثماني في العراق، ومنها فترة حكم المماليك ١٧٤٩-١٨٣١، لعدد غير قليل من المجازر المتلاحقة، وكلفتهم ضحايا كبيرة جدا وخسائر مادية هائلة بالقياس إلى أوضاعهم المعيشية القاسية وفق الغالبية العظمى منهم. فبين عامي ١٧٠٠م و١٨٣٤م مثلاً تعرض الأيزيديون في ولاية الموصل إلى حوالي ١٨ حملة عسكرية، سواء جاءت من الموصل أم من المناطق المحيطة بمنطقة الأيزيديين أم من بغداد، كما إن بعض تلك الحملات ابتدأت من إيران^(٩٩).

وكانت كل الحملات العسكرية التي شنت ضد الأيزيديين تتميز بالتوحش والقتل الواسع النطاق دون رحمة، كما اقترنت أحيانا غير قليلة بنهب قبر الشيخ عادي بن مسافر أو حرق الضريح من أجل الإساءة إلى الكرامة اليزيدية والتعبير عن الحقد والكراهية الدينية^(١٠٠).

ويمكن الإشارة هنا إلى بعض تلك الحملات التي يصعب على الإنسان الأيزيدي حقا أو على الميثولوجيا اليزيدية نسيانها، ومنها الحملة العسكرية التي نظمها ونفذها الملك الفارسي طهماسب (نادر شاه) في سنة ١٧٤٣، التي استهدفت مناطق الأيزيديين واستبيحت فيه العوائل. وقد قتل في هذه الحملة الكثير من سكان المنطقة، وجرى اغتصاب النساء وقتل الأطفال ونهب الأموال وتدمير البيوت على ساكنيها وحرق المزرعات والمحاصيل الزراعية^(١٠١). وكانت أجهزة الدولة العثمانية

(٩٩) عبود، زهير كاظم. لمحات عن اليزيدية. مصدر سابق. ص ٦٠-٨٢ (١٠٠) نفس المصدر السابق. ص ٨٣/٨٤.

(١٠١) أبو داسن. بانوراما الحملات المدمرة التي حلت بالأيزيدية. مقال منشور في مجلة روث. مجلة ثقافية تعني بالشؤون اليزيدية. العدد ١٩٩٩/٦. مطبعة مه ركه. هانوفر. ص ٣٨-٥٩.

تقوم بصورة منتظمة، استناداً إلى إرادة ورغبة السلاطين وعلماء الدين، بحملات عسكرية طالمة ضد الأيزيديين تحت واجهات ثلاث أساسية هي:

- اتهام الأيزيديين بدعوة الناس سراً إلى الدخول في الديانة الأيزيدية، وهم بذلك يحرضون الأهالي على ترك دين الإسلام.

- وأنهم يجردون ويعبدون إبليس بدلاً من عبادة الله.

- وأنهم يرفضون الانخراط في الخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش العثماني.

والسؤال الذي يواجهنا باستمرار يتلخص فيما يلي: ما هي العوامل الكامنة وراء هذا الموقف العثماني البغيض من الأيزيديين؟ وهل كانت تنطلق حقاً من حرص على الإسلام؟

إن الدلائل التي تحت تصرفنا والممارسات الفعلية للولاة والقادة العسكريين في ولاية الموصل، حيث كانت ترتبط بها مناطق الأيزيديين تؤكد الحقيقة التالية: إن الدولة العثمانية، التي كانت تعلن عن "تمسكها" وتعصبها للدين الإسلامي، كانت تعتقد بأن الجماعة الأيزيدية ليست سوى طائفة إسلامية مرتدة عن الدين الإسلامي لا بد من إعادتها إلى جادة الصواب، أو الغوص في دماء من تبقى منها، أي هدر دم من يرفض ذلك، إضافة إلى محاولة فرض الخدمة العسكرية من جديد ضدهم، ومحاولة فرض شتم إبليس عليهم (*). وقد قاد هذا الموقف غير الإنساني والخطأ إلى ارتكاب الحكم العثماني جرائم بشعة بحق الأيزيديين. ففي الوقت الذي وافقت على قبول عريضة شيوخ الأيزيدية، بغض النظر عن طبيعتها والتشويهات التي يمكن

(* من المفيد أن نشير هنا مرة أخرى إلى أن الجماعة الدينية الأيزيدية تتخذ موقف التقية من كل الأنبياء والأولياء الصالحين ومن كل الملائكة باعتبارهم من خلق الله ولا يجوز شتمهم، إذ أن ذلك إساءة للخالق ذاته، فهو الذي خلقهم ومنحهم المهام والواجبات، وعليه فليس من شؤون الإنسان شتم الأديان أو الأشخاص. ويمكن أن تفسر هذه المسألة وفق ما يشاء لها رجال الدين من أديان أخرى تقود إلى خلق إشكاليات جديدة باعتبار الموقف يحتمل أوجهاً وتفسيرات عديدة. حتى إذا كان الموقف يحتمل أوجهاً فما شأن المسلمين والمسيحيين أو اليهود باعتقاد جماعات دينية أخرى أياً كانت تلك المعتقدات متفقة أو مخالفة لاعتقاداتهم. (ك. حبيب).

أن تكون قد تعرضت لها، والموافقة على إعفاء الشبيبة الأيزيدية من الخدمة العسكرية مقابل دفع بدل نقدي عن كل شخص من هؤلاء المدعويين للخدمة، الذي تم في عام ١٨٧٢ (١٠٢).

رفضت القيادة العسكرية ومعها والي الموصل في الوقت نفسه تنفيذ مثل هذا القرار عملياً، وبذلت جهداً جديداً وبتوجيه غير معن من اسطنبول، للتصدي لنشاط ديني مزعوم للأيزيديين في المنطقة والسعي "لإعادتهم إلى حضيرة الإسلام". وقد حاول والي الموصل استفزازهم من خلال الطلب منهم شتم إبليس علناً. وعندما كان المواطن يرفض ممارسة مثل هذا الشتم يعاقب عقوبة شرسة، أو حتى يقتل. ففي شهر نيسان/أبريل من عام ١٨٩٣ شن عمر فهمي باشا حملة عسكرية على مناطق وجبل سنجار، في حين أرسل ولده عاصم بك على رأس حملة إلى كل من الشيخان وباعذرة. وفي الوقت الذي قام الأخير بقتل ونهب بيت الأمير الأيزيدي وما فيه من تراثيات أيزيدية، قام الآخر بحملات عسكرية متواصلة دامت ثلاثة أيام انتهت بسقوط عدد كبير من القتلى في صفوف الطرفين، إضافة إلى الكثير من الأسرى بيد القوات العثمانية. وتبع ذلك حملة عسكرية أخرى في مايس/أيار من عام ١٨٨٤ بقيادة بكر باشا، حيث تحمل الأيزيديون خسائر جديدة في الأرواح والمزروعات والممتلكات. ولم تتوقف هذه الحملات في فترة الحكم العثماني حيث شنت، وبعد مرور ما يقرب من ١٦ سنة على آخر حملة على سنجار، أي في عام ١٩١٠، حملة عسكرية جديدة على أيزيديي سنجار بقيادة أسعد باشا الدرزي (١٠٣). وهنا لا بد من تأكيد حقيقة أن الإرهاب العثماني لم يكن موجهاً ضد الأيزيديين وحدهم، بل مورس في مناطق الحكم العثماني ضد المسيحيين الآشوريين والكلدان، ولكن بشكل خاص ضد الأرمن. كما إنها مورست ضد العرب في مناطق أخرى من العراق أو الدول العربية. ويفترض أن لا ينسى الإنسان ما تعرض له الشيعة الجعفرية من اضطهاد وعسف في فترة الحكم العثماني ومن تهديم للأماكن المقدسة عند الشيعة. في مقابل ما تعرض له أهل السنة من اضطهاد وعسف من جانب الحكام الفرس ومن

(١٠٢) فتاح، شاكرا. اليزيديون والديانة الأيزيدية. ط ١. بيروت ١٩٩٧. ص ٥٣-٥٨.
(١٠٣) أبو داسن. بانوراما الحملات العسكرية التي حلت على الأيزيدية. مصدر سابق. ص ٥٢.

تهديم للأماكن المقدسة عند السنة.

وإذا ما عاد القارئ إلى كتاب المقرئ فسيجد أن الكاتب يؤكد ثلاث حقائق أساسية ومهمة هي:

- كان الحكام العرب والأكراد أو الأتراك يتحالفون معاً ويتأييد مباشرة من رجال الدين لشن حملاتهم إبادة ضد المناطق والقرى والأماكن المقدسة الأيزيدية بدافع ديني شديد التعصب من جهة، وبدافع النهب والسلب والاعتداء من جهة أخرى. وكانت هذه الحملات الهمجية تقابل بالترحاب والتبريك من جانب السلاطين ومن والاهم؛

- وكان الهدف من وراء تلك الحملات "إعادة" الأيزيدية إلى "الإسلام"، إلى "جادة الصواب" بغض النظر عن الثمن الباهظ الذي يتحمله هؤلاء الناس من نساء ورجال وشيوخ وأطفال! والمشكلة الكبيرة كانت تبدو أن المجتمع حينذاك لم يكن يستنكر مثل هذه الحملات بل ربما كان يعتبرها طبيعية من منطلق الدفاع عن الإسلام. وهي مسألة تعبر عن مستوى حضاري متخلف جداً ومغرق في الجهالة والرجعية والتعصب، كما إنه يعبر عن ادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة من جانب هذه الجماعة فحسب!

- ورغم كل تلك المجازر ومحاولات فرض الإسلام عليهم بالعنف، كان الأيزيديون متمسكين بدينهم، وهم على حق تام في ذلك، مدافعين عن طقوسهم وقيمهم وتقاليدهم وهويتهم الدينية، إذ سرعان ما تجمعوا ثانية ليعيدوا بناء أماكنهم المقدسة التي تعرضت للتدنيس والتدمير.

إلا إن تلك السياسات الدموية والعنصرية والتمييز الديني ضد الأيزيدية قادت في الوقت نفسه إلى عواقب سلبية على مستوى الأقلية الأيزيدية والتي يمكن تحديدها بعدة نقاط أساسية هي:

١- حصول مزيد من الانغلاق على الذات والتقوقع القسري الذي حرّمهم من نعمة الاحتكاك الواسع لا مع أبناء المنطقة فحسب، بل ومع الشعوب المجاورة وتأمين المزيد من التأثير والتفاعل المتبادل في مختلف المجالات والمستويات.

٢- بقاء الديانة الأيزيدية والتراتبية التي تبلورت فيها على حالها دون تغيير بسبب الرغبة في الدفاع عن التقاليد والعادات والقيم التي توارثوها، رغم إن الكثير

منها لم يعد ينسجم مع المجتمعات الحديثة ومبادئ حقوق الإنسان والحريات العامة، بما فيها قضايا الزواج والإرث ودور المرأة في المجتمع...الخ.

٣- النمو البطيء جداً في عدد السكان الأيزيديين، رغم أن الولادات عندهم كانت عالية جداً، كما هو الحال عند بقية الفلاحين الأكراد أو الفلاحين في سائر بلدان العالم خلال تلك الحقبة الزمنية، بسبب حملات الإبادة المتعمدة الهادفة إلى تصفية هذه الأقلية الدينية، إضافة إلى الأوبئة والكوارث الطبيعية والأمراض التي كانت تصد الكثير من البشر في هذه المناطق الفقيرة جداً من العراق، حيث حرمت إلى جانب الفقر والبؤس، عملياً من المعالجات الطبية أو إمكانية الحصول على الأدوية الضرورية أو الخدمات الأساسية.

٤- عدم تسلم الأيزيديين لمراكز سياسية أو وظائف حكومية في الدولة، وبالتالي فهم جميعاً كانوا محرومين عملياً من حقوق المواطنة الاعتيادية؛

٥- ولا شك في أن الكادحين الأيزيديين من الفلاحين والكسبة والحرفيين كانوا يتعرضون لطيلة العهود التي يجري البحث فيها إلى استغلال شديد لا من جانب السلاطين والولاة والحكام الأتراك والأكراد والعرب فحسب، بل ومن الأمراء والعائلات الميسورة والمهيمنة على المراكز الدينية والدينية في المجتمع الأيزيدي أيضاً. وكان هذا الاستغلال يجري عبر النمط الاقتصادي الريعي -العلاقات الإقطاعية- الذي ساد الريف الكردي والريف في عموم الدولة العثمانية أولاً، وعبر طبيعة الحكم السياسي المتفسخ في الدولة العثمانية، وعبر المتنفيين على مناطق الأيزيدية ثانياً. ويجد هذا تعبيره حتى في نمط ومستوى حياة ومعيشة الفئات أو المراتب الاجتماعية العليا من جهة، والغالبية العظمى من مرتبة الميردين، وهم غالبية المجتمع الأيزيدي المنتج للخيرات المادية في اقتصاد المناطق الأيزيدية وضمن غالبية الكادحين في إطار المجتمع الكردي عموماً من جهة أخرى. ولم يكن الصراع على الإمارة بين العوائل الأيزيدية أو على المراكز الأخرى بين العائلات الثلاث المعروفة في المجتمع الأيزيدي لمجرد الثوب على المركز الديني (أو) والديني الرئيسي الذي يراد الاستحواذ عليه أو على بقية المراكز الحيوية فحسب، بل ومن أجل أن يكون لهؤلاء المستحوزين على تلك المراكز موقع الصدارة في المدخولات الرعية التي ترد لهم ولعائلاتهم من كادحي الأيزيدية أيضاً. ولدى الباحث إحساس

بأن هذه المسألة لم تبحث بما فيه الكفاية من جانب العناصر الديمقراطية والتقدمية في المجتمع الأيزيدي بسبب كونهم وما زالوا يواجهون التمييز الديني والقومي والتعننت في التعامل معهم بعيداً عن الحق الكامل في المساواة في الحقوق والواجبات مع بقية المواطنين، إضافة إلى حساسيتها والعلاقة العضوية القائمة بين المراكز الدينية والدينية في الديانة الأيزيدية. إن هذا التداخل يعقد هذه العملية كما هو الحال في مفهوم الأصوليين للإسلام الذين يعتقدون بوحدة الدين والدولة ويرفضون الفصل بينهما. ومع ذلك أرى بأن القوى الديمقراطية الأيزيدية تتحمل مسؤولية مواجهة الإشكاليات الراهنة بذهنية متفتحة وحديثة تمارس النقد الموضوعي لبعض مضامين أو طقوس وتقاليد أو التراتبية الجارية وما ينشأ عنها من استغلال للكادحين من الأيزيديين أو الميردين في الديانة الأيزيدية. كما يفترض أن يحصل هذا مع بقية الأديان أياً كانت التسمية التي تسبغها هذه الديانة أو تلك على نفسها. وهذا الموقف العلماني لا يتناقض مع إبداء الاحترام التام للأديان ولكل المؤمنين بها من جهة، ولا مع حق المؤمنين بتلك الأديان بمزاولة طقوسهم الدينية بكل حرية وعلنية من جهة أخرى.

٦- تشترك غالبية الأديان في الموقف من الزواج داخل الجماعة الدينية وإزاء الخارج. فالزواج عند الأيزيدية يخضع لقاعدتين هما:

أ- الزواج على أساس التراتبية الدينية والاجتماعية، أي القاعدة التي تمنع الزواج بين التراتبيات الدينية الاجتماعية المختلفة.

ب- منع الزواج على المرأة والرجل من خارج الجماعة الأيزيدية. وهذه الظاهرة ليست جديدة بالنسبة للديانات القديمة، كما يمكن ملاحظته في بعض مناطق الهند أو لدى الصابئة في العراق مثلاً، فأن من المناسب على الباحثين الشباب المجدد والجماعات الدينية ذاته أن تدرس هذه الظاهرة مجدداً وتتحرى عن العوامل التي دعت إليها وكيف يمكن تطويعها لصالح الجماعة الأيزيدية من النواحي المختلفة، بما فيها القضايا الصحية وتطور النسل. أما المسألة الثانية المرتبطة بالزواج من خارج الجماعة الأيزيدية فتخضع لعوامل غير قليلة، منها الخوف الذي يبدو في أحيان غير قليلة مشروعاً نتيجة الاضطهاد الذي تعرضت له هذه الجماعة ونتيجة الادعاء بكونهم من المسلمين المرتدين، وبالتالي تشعر بأن هناك جهوداً محمومة لتصنيفيتها

من خلال الزواج بنساء ورجال الأيزيديين من جانب المسلمين والمسيحيين. فالخشية والدفاع عن النفس أحد الأسباب التي تدفع بهذا العامل إلى المقدمة. ومثل هذا التحريم نجد عند أديان أخرى أيضاً وأن اختلف في صرامته أو إطلاقه. أي أن التحريم لا نجد عند جماعة الديانة الأيزيدية فحسب، بل تشترك معها جماعات بعض الأديان الأخرى، ومنها الديانة الإسلامية والصابئة أو المسيحية أيضاً قبل عملية التنوير. فالدين الإسلامي يرفض زواج الرجل بامرأة مسيحية أو من أتباع ديانات أخرى ما لم تتحول المرأة إلى الديانة الإسلامية، وكذا الحال بالنسبة للمرأة المسلمة، إذ لا يحق لها أن تتزوج برجل مسيحي أو أيزيدي أو يهودي مثلاً قبل أن يتحول إلى الديانة الإسلامية. وإن رفض هذا الموقف فسيكون الزواج، كما عند الشيعة منقطعاً ولفترة زمنية يحددها الطرفان. ومن هنا فإن لدى الأيزيديين خشية من أن الزواج بجماعات من أديان أخرى يمكن أن يفرض عليهم التخلي عن دينهم، والذي يمكن أن يقود بدوره إلى تقلص في عدد أتباع الديانة الأيزيدية أو حتى ضمور الجماعة تدريجاً. كما أن الديانة الأيزيدية ليست ديانة تبشيرية وبالتالي، فمن غير الممكن تحول أتباع ديانات أخرى إلى الديانة الأيزيدية. وعلى أية حال فإن قضايا الزواج هي من المسائل الداخلية التي يفترض في الأيزيديين أنفسهم معالجتها، خاصة وأن وجود نسبة مهمة منهم في الخارج ستقود بهم إلى الزواج بنساء من أديان أخرى أو النساء برجال من أديان أخرى. كما يفترض في المسلمين والصابئة وغيرهم التفكير بهذا التحريم أيضاً. وعلينا جميعاً احترام القواعد التي تعمل بها، ولكن هذا لا يعني عدم إبداء الملاحظات الإيجابية أو السلبية بشأنها. إذ بدون مثل هذا النقد لما تطورت بعض الأديان ولما حصلت تلك التحولات فيها على مدى التاريخ المنصرم، وأن كانت التغييرات بطيئة وبطيئة جداً بالنسبة إلى كل الأديان على حد سواء تقريباً.

الفصل الرابع:

الأيزيديون في العراق الحديث

المبحث الأول: الأيزيديون في العهد الملكي

أصبح العراقيون جميعاً، سواء كانوا من العرب والكرد، أم من التركمان والآشوريين والكلدان، مواطنات ومواطنين في الدولة العراقية الحديثة التي تشكلت في العام ١٩٢١ والتي أصبح فيها الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة ملكاً على العراق. وإعترف القانون الأساسي العراقي (الدستور)، الذي أقر في آذار/مارس من عام ١٩٢٥، بأن الدين الرسمي للدولة العراقية هو الإسلام، ولكنه يضع في الوقت نفسه على الدولة مسؤولية احترام بقية الأديان وضمان ممارسة شعائرها بحرية تامة. فقد نصّت المادة الثالثة عشرة على ما يلي:

"الإسلام دين الدولة الرسمي، وحرية القيام بشعائره المألوفة في العراق على اختلاف مذاهبه محترمة لا تمس، وتضمن لجميع ساكني البلاد حرية الاعتقاد التامة، وحرية القيام بشعائر العبادة وفقاً لعاداتهم ما لم تكن مخلة بالأمن والنظام، وما لم تناف الآداب العامة" (١٠٤).

وكان هذا النص ينطلق من مواقع الربط بين الدين والدولة، وبالتالي لا يضع الدولة في موقع الحياد بين الأديان، إذ أنه ومن الناحية العملية يفسح المجال لانحياز الدولة إلى جانب الإسلام والمسلمين وبالضد من الأديان والجماعات الدينية الأخرى. رغم أن النص يتضمن حق الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية والمندائية والأيزيدية أو الطوائف الدينية الأخرى، بما فيها الكاثائية والشبكية والبابية والبهائية وغيرها، في ممارسة طقوسها وشعائرها الدينية وتقاليدها بكل حرية، وأن القانون الأساسي يفرض على المشرع سن قوانين تستجيب لهذا المضمون وتتناغم معه، أي أن توضع في ضوءه وأن تصون وتحرس هذا الحق. ولكن تجارب الماضي الطويل والواقع العملي تدلل بما لا يقبل الشك بأن عدم فصل الدين عن الدولة كان من أبرز العوامل في ما تعرضت له

(١٠٤) الحسيني، عبدالرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الأول. مطبعة دار الكتب. بيروت. ١٩٧٤. ص ٣٢٠.

الأديان والطوائف المختلفة من تمييز في التعامل اليومي وفي حرية ممارسة أتباع تلك الديانات لطقوسها الدينية وشعائرها وتقاليدها المختلفة. ولهذا فلا غرابة في أن يطرح الإنسان السؤال التالي: كيف كان وضع الأيزيديين، وهم جماعة دينية صغيرة ومستقلة عن الأديان الأخرى في العراق الحديث؟ وكيف كان تعامل الدولة وبقية المواطنين مع الأيزيديين؟

لقد تميزت علاقات الناس في العراق القديم بحرية العبادة والاعتراف المتبادل بالأديان والآلهة والابتعاد عن الإساءة لها، رغم أنها وفي فترات متأخرة شهدت تعرض بعض نصب الآلهة للتمييز والمصادرة في أعقاب حرب خاسرة مثلاً. وفي فترات مختلفة من العهود التالية التي سادت العراق شهدت تلك العلاقات الدينية تفاوتاً في المعاملة المتسمة بالتسامح أحياناً والتمييز المحدود أحياناً أخرى وبالتمييز الصارخ والمتعصب في أحيان أخرى غير قليلة. ولكن المشرع للقانون الأساسي العراقي لم يتعظ من هذه التجارب فأصر على أن يكون دين الدولة العراقية الرسمي هو الإسلام، على أن يتم الاعتراف ببقية الأديان والطوائف صغيرها وكبيرها على حد سواء واحترام حقها الكامل في ممارسة طقوسها وشعائرها. كما أنه أشار بشكل غير مناسب إلى أن "حرية القيام بشعائر العبادة وفقاً لعاداتهم" يجب أن لا تكون "مخلة بالأمن والنظام"، كما يفترض أن لا تكون منافية للآداب العامة. إذ أن مثل هذه الصيغة تمنح الحكومة، وهي هنا حكومة مسلمة في أغليبتها وفي دولة تلتزم بالإسلام ديناً رسمياً لها على الأقل من الناحية الدستورية، الحق بالتدخل في شؤون الأديان الأخرى أو منعها من أداء شعائرها وتقاليدها الدينية بحجة مخالفتها للأمن والنظام العام أو أنها تتنافى مع الآداب العامة.

وعلى العموم فإن هذا الموقف المتحيز الذي التزم به الدستور العراقي رسمياً، رغم ما فيه من مواد تؤكد طبيعته المدنية، قد أوجد أساساً لمشكلات قادمة كان في مقدوره تجاوزها لو ابتعد عن هذا الربط غير المطلوب بين الدين والدولة. ومن حيث المبدأ والممارسة العملية مُنحت إذن كافة الجماعات الدينية العراقية، وهي كثيرة، الحق في العبادة وممارسة طقوسها الدينية دون أن يجري أي اعتراض أو تعرض مباشر لها. ولكنها كانت ابتداءً لا تجد تمثيلاً لها لا في المنطقة التي تعيش فيها الجماعة الأيزيدية ولا على نطاق الحكم في العراق. وإذا كانت الحكومات العراقية المتعاقبة

تراعي في تكوينها وجود وزير أو وزيرين من الشيعة ووزير من المسيحيين وآخر من اليهود، إضافة إلى وزير أو وزيرين من الأكراد، فأنها لم تبرز في المجالات الأخرى، كما لم تجد الأقليات الدينية الأخرى أي دور لها في أجهزة الدولة والإدارات المحلية. وبعد سنّ القانون الأساسي بدأت الحكومات العراقية المتعاقبة بممارسة أسلوب جديد ومفيد يمكن معه منح الأقليات الدينية حق ممارسة بعض الشؤون الإدارية الدينية أو الخاصة بالجماعة وبالشؤون الدينية واستناداً إلى قانون العشائر في مناطقهم. ومن هذا المنطلق أوحى الإدارة في الموصل بإمكانية تكوين المجلس الروحاني للجماعة الدينية الأيزيدية ابتداءً من عام ١٩٢٨، كما هو حال بقية الأديان. وكان الصراع بين عائلتين من بيت الإمارة الأيزيدية على مركز الإمارة قد تفاقم واتخذ أبعاداً مضرة بالجماعة الدينية ذاتها، أي الصراع على الإمارة بين عائلة حسين بك وعائلة سعيد بك، إضافة إلى اشتداد الصراع بين العشائر الأيزيدية السنجرارية وبيت الإمارة عموماً. وإذا اعتبر تشكيل المجلس الروحاني للجماعة الأيزيدية مسألة مفيدة حقاً بحيث يمكن بلورة وتوحيد مواقفها ومهماتها ومطالبها إزاء الحكومة أو القوى الأخرى، فإن الأمر قد تضمن في حينها إشكالية ذات ثلاثة أبعاد أو وجهات نظر، يمكن تلخيصها في المواقف التالية:

- رغبة الحكومة العراقية في أن تبدو للعالم الخارجي على إنها تحترم الأديان والجماعات والأقليات الدينية المختلفة ليسهل لها إنهاء الانتداب عليها ولوجها عصبية الأمم، وأن تستفيد من هذا المجلس من خلال علاقتها بالأمير الذي يترأس المجلس لتأمين علاقة اعتيادية مع الجماعة الدينية وبعيدا عن احتمال الاستفادة من مواقفهم من جانب القوى الفرنسية في سوريا التي كانت لا تريد جعل الموصل جزءاً من العراق، حيث كان الصراع على الموصل بين البريطانيين والفرنسيين والأترك في أوجه حينذاك. وكانت الإشكالية الأساسية تتلخص في الإجابة عن السؤال التالي: هل تصيح ولاية الموصل جزءاً من العراق أم من سوريا أم من تركيا؟ وكان أمر الحفاظ على علاقة جيدة مع أمير الأيزيديين بالتجاوب مع مصالحه الخاصة يساعد الحكومة العراقية، كما كانت تعتقد، على ضمان السيطرة على الأيزيديين جميعاً أو التدخل في شؤونهم الداخلية عبر الأمير. ومع أن الحكومات العراقية قد تسنى لها تحقيق بعض ما تريد، إلا إنها لم تكن في كل الأحوال قادرة في الوصول إلى ما تريد، إذ أن الأمير والمجلس الروحاني عجزا طويلاً عن فرض هيمنتهم على جميع الأيزيديين،

وهو ما برهنت عليه الأحداث اللاحقة التي تلت تشكيل هذا المجلس.

- وكانت هناك رغبة لدى الأوساط الشعبية، سواء كان لها دور في تشكيل المجلس أم لم تشترك في انتخاب أعضاء المجلس لاحقاً، ولا في تعيين من تراه مناسباً، ولا في إقرار نظامه الداخلي وقواعد عمله، في أن ترى وجود مجلس روحاني يدافع عن مصالحها الدينية ويتبنى قضاياها الحيوية ويقلل من التمييز والتخلف الذي كانت تعاني منه منطقتهم الأيزيديين. وكانت هناك مجموعة من الروحانيين تتطلع هي الأخرى إلى نفس هذا الهدف والتي كانت ترى ضرورة وضع المجلس في خدمة المجتمع الأيزيدي وليس في خدمة الحكومة أو مصالح الأمير والنخبة القائدة في الطبقات الدينية العليا المهيمنة على المجتمع الأيزيدي اجتماعياً واقتصادياً ودينياً.

- وكانت هناك أخيراً رغبة الأمير والعائلة المهيمنة على مقادير الأيزيديين في أن المجلس يمكن أن يوفر لهم عدة مكاسب جوهرية:

١) تمثيل الأيزيديين إزاء الحكومة العراقية والمسؤولين في ولاية الموصل وضمان أفضل العلاقات مع الإدارة الحكومية لصالح الأمير وعائلته.

٢) تأمين الربط بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية وفرضها على الأيزيديين عملياً من خلال الأمير الذي سيكون رئيساً للمجلس الروحاني.

٣) تأمين قواعد عمل ومواد قانونية في النظام الداخلي للمجلس يمكنها المساهمة والمساعدة في إغناء الأمير وعائلته مالياً ومادياً على حساب القاعدة الأساسية للجماعة الدينية الواسعة والفقيرة.

٤) تأمين حصول المجلس الروحاني، ومن خلاله لعائلة الأمير، على ما يصل للمزارات الأيزيدية من موارد مالية وهدايا.

٥) إضافة إلى حسم الصراع داخل البيت الأميري لصالح الأمير سعيد بك وعلى حساب حسين بك (١٠٥).

(١٠٥) جندي، خليل، د. الأيزيدية في الوثائق السرية للحكومة العراقية ١٢٨-١٩٣٠.

مقال منشور في مجلة روز. العدد ٨/٧- أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩. تصدر عن مركز

الأيزيدية خارج الوطن. ص ٣٤/٣٥.

ويؤكد الباحث العلمي الأيزيدي الدكتور خليل جندي على أن الأمير كانت له حقا مثل تلك الأهداف من خلال الإطلاع على وثيقة سرية رفعها قائمقام الشيخان إلى متصرفية لواء الموصل في الثالث من تموز/ يوليو عام ١٩٢٨ تطرح مطالب الأمير بوضع تشريع يسمح للأمير بممارسة جملة من الأمور من جهة، ويقدم للمتصرف رأيه بما يريده الأمير من جهة ثانية.

وقد لخص القائمقام بصواب أهداف الأمير الأيزيدي من تشكيل المجلس الروحاني ومهامه حين كتب يقول:

"ومن جملة الفوائد التي كان سعيد بك يتوخاها من هذا المجلس هي:

أ- على كل يزيدي الذي يخطف بنتا باكرة بقصد التزوج بها أن يعطي إلى سعيد بك ثور أو عشر النقديّة التي يستحقها وارثها.

ب- على كل يزيدي يخطف امرأة متزوجة بقصد التزوج بها أن يعطي إلى سعيد بك بغلاً وعشر النقديّة التي يستحقها زوجها السابق.

ج- كل يزيدي يتوفى من غير ذرية فلسعيد بك أن يستورثه باسم الوقف وإلى غير ذلك من الرسوم والغرامات التي يستحقها ملك البلاد باسم القانون." (١٠٦).

ومن يقرأ هذه المواد يتذكر ما كانت تتضمنه شريعة حمورابي وغيرها من شرائع العراق القديم في هذا الحقل، لا من حيث الغرامات فحسب، بل من حيث اللغة أو الطريقة المستخدمة في التعبير عن النص التشريعي أيضاً. كما أنها كانت تعبر عن الواقع الذي كانت تمارسه كثرة من الأيزيديين عملياً في هذا الصدد، إلا أن الأمير كان يريد تثبيت تلك "الحقوق" له وحده فقط عبر تشريعها وجعلها ملزمة لجميع الأيزيديين وأن يبعد وصاية المجلس الروحاني عليها وعن سلطته في هذا الصدد، إضافة إلى إبعاد تدخل الدولة العراقية في هذا الشأن المدني وليس الديني. وكان موقف القائمقام يتلخص بتجاوز هذه المطالب باعتبارها مضرّة بالجماعة الأيزيدية عموماً، كما يمكنها أن تعمق الانشقاق الذي كان قائماً أصلاً بين العشائر الأيزيدية وبين الأمير وجماعات سنجان (١٠٧). وكان القائمقام على حق في ذلك.

(١٠٦) نفس المصدر السابق. وثيقة رقم ٢. ص ٤٢.

(١٠٧) نفس المصدر السابق. ص ٣٦ و ٤٢.

- وإذا كانت الجماعة الدينية في الشيخان وباعذرة قد منحت تأييدها لهذا المجلس، فإن الجماعة الدينية في سنجان لم تمنح تأييدها ولم توقع على العريضة التي طرحت جملة من المطالب لتأسيس المجلس الروحاني. ولهذا لم تكن تشعر بالتزامها الديني إزاء المجلس (١٠٨).

ومع ذلك فقد تشكل المجلس منذ عام ١٩٣٠ وهو ما يزال قائماً حتى الوقت الحاضر، وما يزال الأمير يترأسه ومعه مجموعة من رجال الدين الأيزيديين، ولكن الشكوك تدور حول دوره وأهمية ما قدمه للناس حتى الآن. وعندما تشكل المجلس لم يكن الصفاء قد عاد إلى البيت الأميري ولا إلى الناس في سنجان والشيخان وباعذرة، إذ كان البعض الكثير يعتبرون بأن الإمارة لا تمثل بشكل صحيح مصالح المجتمع الأيزيدي، بل يعتبرونها طبقة حاكمة فوقية تستغل المجتمع وتسعى إلى إيجاد مستلزمات قانونية لمواصلة الاستغلال. ولم تكن الإمارة منسجمة تماماً مع المجموعات الدينية في سنجان بقدر ما كانت تعبر عن المجموعات الدينية لمناطق الشيخان وباعذرة، وبالتالي فقد كان في مقدور الأمير الضغط على جماعة الشيخان ولم يكن قادراً على فرض إرادته على الجماعات في سنجان.

وكانت الجماعات الأيزيدية تتعرض إلى مضايقات من جانب المسؤولين والسكان المسلمين بصيغ مختلفة، وبخاصة من العشائر القريبة من مناطق سكن الأيزيدية، إذ كان المسؤولون يقفون باستمرار ضد مصالح الأيزيدية وإلى جانب مصالح المسلمين العرب أو الأكراد. وفي عام ١٩٣٥ حاولت الحكومة فرض قانون الخدمة العسكرية على الأيزيدية أيضاً في إطار تنفيذ "قانون الدفاع الوطني"، وبخلاف ما صدر في حينها من قبول الدولة العثمانية بإعفائهم من الخدمة العسكرية مقابل البديل النقدي. ولم يكن الرفض عاماً وشاملاً، إلا أن مجموعة كبيرة من الأيزيديين بقيادة داود

(١٠٨) نفس المصدر السابق. ص ٤٠. نشر الدكتور خليل جندي العريضة التي تقدم بها

الأمير الأيزيدي سعيد بك ومعه ١٣ شخصاً من رؤساء الأيزيديين إلى الحكومة الملكية العراقية لتشكيل المجلس الروحاني، وهي مؤرخة في ١ تموز/ يوليو من عام ١٩٢٨. ومنها يستدل على أن الرؤساء الذين وقعوا هذه العريضة كانوا من شيخان وباعذرة فقط، ولم يكن بينهم من هو من سنجان. راجع نفس المصدر. وثيقة رقم ١. ص ٤٠.

الداود رفضت ذلك. وبدلاً من اتخاذ إجراءات سلمية تثقيفية صبورة مع سكان المنطقة تساهم في عملية تنوير ضرورية في المجتمع الأيزيدي الكردي، عمدت الحكومة العراقية، خشية منها من امتداد لهيب الحركة إلى مناطق أخرى، وكانت لتوها قد انتهت من توجيه ضربات شرسة للحركة الآشورية التي اندلعت في عام ١٩٣٣ بقيادة المار شمعون والتي أطلق عليها بـ"ثورة التسيارين"^(١٠٩)، إلى استخدام العنف والعسكر لضرب السكان "وتأديهم!". ولهذا قامت مديرية الشرطة العامة والجيش العراقي، وبإيعاز من وزارة الداخلية وبموافقة الحكومة وبمعرفة بريطانيا، بتنظيم حملة عسكرية واسعة. وجاء في كتاب تاريخ الوزارات العراقية للسيد عبدالرزاق الحسيني يقول: "فجرت بعثة قوامها ١٥٠ شرطياً خيلاً، و ٤٠٠ شرطي من المشاة، مع سبع سيارات مسلحة، ولما ارتوي تقوية هذه البعثة، تحركت من الموصل في أول تشرين الأول ١٩٣٥ ثلاث قطع من الجيش لتجتمع في "معسكر كري عرب"، وهكذا تألفت قوة سنجار بإمرة أمير اللواء حسين فوزي وتم تحشيدتها يوم ١٩٣٥/١٠/٥ في قرية كري عرب وقرية تبة اشكفته"، وكان يعزز هذه القوة العسكرية رف من الطائرات العراقية، وكان هدفها "سنجار" فأخذت القوات المعروفة بمناعتها وشموخها ووعورة مسالكها"^(١١٠).

(١٠٩) الحسيني، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الثالث. مطبعة دار الكتب. بغداد. ١٩٧٤، ص ٢٦٠-٣١٤.

راجع أيضاً: القيسي. عبد المجيد حسيب. هوامش على تاريخ العراق السياسي في رؤية جديدة - تاريخ القضية الآشورية في العراق".

الناسر CAN P.O.BOX 3539. Modesto, CA 95352 USA

لم يذكر أسم دار النشر ولا سنة الطبع والنشر، ولكن يبدو من متن المقدمة أنه في عام ١٩٩٥. ص ٥٢.

راجع أيضاً: فتح الله، جرجيس. رجال ووقائع في الميزان. حوار أجره مؤيد طيب وسعيد يحيى. دار نارس للطباعة والنشر. أربيل. ٢٠٠١. ص ٢٥٠-٢٥٧.

(١١٠) الحسيني، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. مصدر سابق. ص ١٥٢/١٥١.

وبشير السيد الحسيني إلى أن القتال بين الطرفين كان باسلاً، رغم التفاوت في عدد القوات والمعدات العسكرية والصنوف التي شاركت فيها والتي كانت في كل الأحوال في غير صالح الأيزيديين وانتهت إلى قتل عدد كبير من الأيزيديين وأسر عدد آخر، إضافة إلى استسلام ٢٢٤ منهم للقوات الحكومية. وكانت وزارة ياسين الهاشمي هي المسؤولة عن تنظيم هذه الحملة، ولعب وزير الدفاع جعفر العسكري ووزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني دوراً بارزاً في توجيه هذه الحملة العسكرية الظالمة. كما كانوا وراء أحكام الإعدام التي نفذت بحق تسعة منهم وأحكام أخرى صدرت بحق الآخرين من قبل محاكم عسكرية عرفية، إذ خضعت المنطقة في تلك الفترة إلى الأحكام العرفية، وبذلك أوقفت "تنفيذ قانون أصول المحاكمات الجزائية، وقانون إدارة الأولوية، وقوانين الجمعيات والاجتماعات والتجمعات، وقانون دعاوى العشائر، وقانون المطبوعات، وقانون انضباط موظفي الدولة، وقانون الخدمة المدنية، وقانون الحكام والقضاة، والقوانين الأخرى بقدر ما لها من المساس بالإجراءات والمحاكمات التي تتطلبها الإدارة العرفية والعسكرية في المناطق المذكورة حسبما يتراءى لأمير المنطقة"^(١١١).

وجاء في تصريحات السيد عمر نظمي متصرف لواء الموصل حينذاك بأن قبائل شمر العربية كانت مستعدة للقيام بغزو مناطق الأيزيدية من أجل السلب والنهب بعد انتهاء القتال مع الجيش العراقي مباشرة، لولا الدور الذي لعبه المتصرف مع الجيش في إبعادهم عن منطقة القتال ومنعهم من القيام بما خططوا له^(١١٢). لقد كانت للحملة العسكرية ضد الأيزيديين آثارها السلبية على المجتمع الكردي وعلى السكان الأيزيديين على نحو خاص، كما كانت لها أصداء سلبية على الصعيد الدولي، إذ اختلقت الحملة بثلاثة مسائل مهمة هي: العداء للجماعة الدينية الأيزيدية والعداء للأكراد في المنطقة، إضافة إلى الموقف العام من الحركات الشعبية حينذاك التي كانت تواجه بذهنية عسكرية متطرفة، تماماً كما حصل بالنسبة لحركة الآشوريين والحركات الفلاحية في مناطق الوسط والجنوب. وكانت الذهنية القومية والعسكرية

(١١١) نفس المصدر السابق. ص ١٥٣.

(١١٢) نفس المصدر السابق. ص ١٥٢. وكذلك الهامس رقم ١ على نفس الصفحة.

غير المتفتحة والضيقة والشوفينية والتعصب الديني وراء ممارسة مثل هذه الأساليب في معالجة المشكلات السياسية والقومية والدينية والاجتماعية في العراق حينذاك (١١٣).

ويفترض أن لا ننسى الإشارة إلى أن هذه السياسات العنيفة والتعصب القومي والديني كانت جزءاً من التراث والتركة الثقيلتين للدولة العثمانية في العراق والتي برزت وتكرست في سلوك الضباط العراقيين الذين تتلمذوا على أيدي الضباط الأتراك من ذوي الذهنية العسكرية والشوفينية المتطرفة وتسلموا زمام الحكم في العراق في أعقاب تشكيل الملكية الدستورية. وتلك السياسات المتشددة تجلت أيضاً في الموقف من حركات سياسية وقومية واجتماعية لاحقة في كردستان العراق - أو في المناطق العربية من العراق - مثل حركات البارزانيين وغيرهم من الأكراد والحركات الفلاحية في جنوب العراق ووسطه. ويفترض أن يقارن الإنسان بين ما كانت تمارسه السلطات العثمانية إزاء مثل هذه الحركات الشعبية ذات المطالب العادلة، وبين إجراءات جيل الضباط والسياسيين العراقيين الذين تربوا وتعلموا على أيدي المحتل العثماني للعراق وتخرجوا من مدارسها العسكرية في اسطنبول. فوفق المعلومات التي أوردها السيد عبدالرزاق الحسيني، وهي معلومات رسمية، غالباً ما كانت تسعى إلى التقليل من أرقام ضحايا الحملات العسكرية، كانت حصيلة المحاكمات على النحو الآتي: "بلغ عدد المحكومين بالإعدام أحد عشر شخصاً، نفذ الحكم في تسعة منهم، وأبدل بعقوبة السجن المؤبد في شخصين، وبلغ عدد الذين حكموا بالسجن لمدد مختلفة ٣٢٦ نسمة، والذين حكم عليهم بالإبعاد ٤٩ نسمة، والذين حكم عليهم بالسجن الإصلاحي ثلاثة فيكون المجموع العام لعدد المحكومين ٣٨٩ نسمة. وقد قبض على سبعة أشخاص بعد انتهاء الأحكام العرفية فأرسلوا إلى محاكم الجزاء لإجراء محاكمتهم فيها" (١١٤).

(١١٣) كان السيد ياسين الهاشمي رئيساً للوزراء والسيد رشيد عالي الكيلاني وزيراً للدخالية والسيد جعفر العسكري وزيراً للدفاع في فترة الحملة العسكرية التي استهدفت الأيزيديين في عام ١٩٣٣.

(١١٤) الحسيني، عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الرابع. ط ٤ موسعة. مطبعة دار الكتب. بغداد. ١٩٧٤. ص ١٥٥. هامش رقم ١.

وكان الاضطهاد الذي تتعرض له الجماعة الأيزيدية ناجم عن كونها أقلية دينية ذات ديانة قديمة تعود إلى ماض إنساني وكردية وعراقي قديم جداً وتختلف في ديانتها والتقاليد أو الطقوس التي تمارسها عن المهود في الديانات الأخرى، وبسبب كونها من القومية الكردية المضطهدة عموماً في العراق من جانب الحكومات العراقية المتعاقبة، إضافة إلى كونها تشكل جزءاً من الشعب العراقي الذي كان يعاني من اضطهاد تلك الحكومات الملكية المتعاقبة، أو حتى فيما بعد، أي في ظل الحكم الجمهوري. ولا شك في أن الأقلية الدينية الأيزيدية كانت تتعرض لعدم ارتياح لا من الحكومات فحسب، بل ومن جانب كثرة من سكان الغالبية المسلمة ومن كثرة من جانب الأقلية المسيحية أيضاً، بسبب الدعايات التي روجت عنهم والإساءات التي لحقت بهم من خلال ما روجه جملة من رجال الدين وأتباع الديانات الأخرى والمغرضين ضدهم. ولكن لا شك في أن القوى الديمقراطية العراقية، عربية كانت أم كردية أم غيرها، كانت تتفهم المحنة التي كان فيها الأيزيديون، وكانت تناضل مع الأيزيديين في سبيل التمتع بحقوقهم الدينية المشروعة.

المبحث الثاني: الأيزيديون في العهد الجمهوري

ساهمت مجموعات غير قليلة من الأيزيديين في النضال الذي خاضه الشعب العراقي في سبيل حريته واستقلاله وخلصه من الهيمنة البريطانية والحكم الملكي الإقطاعي الرجعي، كما ساهمت مجموعات غير قليلة في النضال الذي خاضه الشعب الكردي في سبيل حقوقه القومية العادلة. وسقط لهم شهداء على هذا الطريق. وكان لهم دورهم أيضاً في انتصار ثورة تموز عام ١٩٥٨، كما كانوا ينتظرون منها الإسهام في تغيير أوضاع التخلف في إقليم كردستان عموماً وأوضاعهم المزرية والأكثر سوءاً على نحو خاص. ولكن الثورة لم تعجز عن تحقيق تلك الطموحات المشروعة للشعب الكردي وللأقلية الأيزيدية فحسب، بل دفعت بالمسألة الكردية وقضايا التخلف في كردستان العراق والحرية الدينية إلى أمام وفرضت على القوى السياسية المختلفة أخذها بنظر الاعتبار، من خلال المعارك التي بدأت في عام ١٩٦١ ضد القوى الكردية في الإقليم، ثم توالى الانقلابات العسكرية. وتحمل الأيزيديون قسطهم الثقيل جراء عواقب تلك الانقلابات المتلاحقة التي وقعت في العراق طيلة العهد الجمهوري، كما تحملوا الكثير بسبب السياسات

القومية الشوفينية والتعصب الديني التي مارستها قيادات البعث والنظم الدكتاتورية التي توالى منذ نجاح الانقلاب الدموي في العراق في الثامن من شباط عام ١٩٦٣ منذ أكثر من أربعة عقود.

إن واقع الحياة السياسية للأيزيديين يشير إلى أن مجموعات غير قليلة من الشباب الأيزيدي قد ساهم بشكل فعال وملمس في النضال ضد الحكم الاستبدادي القائم، ولم ينعزل عن نشاط وفعاليات القوى السياسية العراقية والكرديستانية العراقية وفي حركة البيشمركة للأحزاب القومية الكردية وحركة الأنصار الشيوعيين في كردستان العراق التي ناهضت الحكم الدكتاتوري في سنوات العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. وقد احتل العديد من المناضلين الأيزيديين مراكز قيادية في فصائل الأنصار الشيوعيين على المستويين العسكري والسياسي، إلى جانب دورهم في التنظيمات المدنية للحزب الشيوعي العراقي، وكذلك نشاطهم في قوات البيشمركة (الأنصار) الكردية والتنظيمات السياسية للحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني وبقية التنظيمات السياسية الكردية في كردستان العراق، إذ قدموا نماذج جيدة ومقدامة في النضال الذي كانوا يخوضونه مع رفاقهم وأخوتهم من الأكراد والعرب والتركمان والأشوريين والكلدان والصابئة المندائيين. ولا شك في أن قسماً من هؤلاء الذي شارك في النضال لم يكن منتصباً إلى حزب معين إذ أن المحرك الأساسي في هذا النضال تمثل في وجود النظام الدكتاتوري المناهض لكل ما هو خير وديمقراطي وإنساني في العراق. ومن هنا أيضاً تزايدت معاناة الأيزيديين حيث شردوا من مناطقهم ووضعوا في مستوطنات خاصة أقيمت لهم، كما هو الحال لعدد كبير من السكان الأكراد في إقليم كردستان العراق.

إن الإشكالية المركزية في الموقف القومي الشوفيني والديني المتعصب للحزب الحاكم والحكم القائم في العراق إزاء الأيزيديين الأكراد تكمن في إصرار الحكم البعثي وحزب البعث الحاكم والمستبد صدام حسين على اعتبار: (١١٥)

(١١٥) راجع في هذا الصدد: جندي، خليل د. الأيزيديون في الوضع الراهن. مقالة من ٧ صفحات مع مرفقات. نشرت المقالة باللغة الألمانية في مجلة روژ، العدد ٤ و ٥ / أبريل/ نيسان ١٩٩٨. هانوفر. ص ٧٥-٩٨.

١- أن الأيزيديين ليسوا أكرادا بل هم من أصل عربي وقطنوا تلك المنطقة منذ القدم، ولذلك فهم عرب!

٢- أنهم من الناحية الدينية ليسوا سوى فرقة من فرق المسلمين الكثيرة التي انشقت عن الإسلام ودخلت عليها الكثير من البدع، وأن عليهم العودة إلى حظيرة الإسلام.

واستناداً إلى هذا الموقف الشوفيني والديني المتعصب والمنافي لحقائق ووقائع وضع الأيزيديين القومي والديني اتخذت الحكومات العراقية البعثية المتعاقبة مجموعة من الإجراءات الظالمة والقاسية بحق الأيزيديين، نشير فيما يلي إلى بعضها، على سبيل المثال لا الحصر:

- إبعاد السكان عن من أراضيهم وممتلكاتهم ودور سكناهم ووضعهم في مجمعات سكنية أقيمت لهذا الغرض.

- رفض تعليمهم باللغة الكردية والإصرار على تعليمهم باللغة العربية.

- إقامة جوامع في المجمعات الجديدة حيث يسكن الأيزيديون، علماً بأنهم ليسوا من المسلمين.

- نزع أسلحتهم كاملة، رغم أن الفلاحين الأيزيديين لا يمكنهم العيش دون سلاح في تلك المناطق الريفية والقرى والمدن الصغيرة حيث ينعدم الأمن والاستقرار وتزداد تحرشات المسلمين المتطرفين بهم عموماً وبالنساء بشكل خاص.

- الإكثار من الجواسيس والعيون التي تراقب تحركات الأيزيديين، إضافة إلى فرض انتماء الناس إلى الحزب الحاكم قسراً.

- اعتقال إستمرار عدد غير قليل من أبناء الأيزيديين بحجج كثيرة بما فيها العمل في صفوف البيشمركة أو الأنصار الشيوعيين حينذاك أو الانتماء للأحزاب المعارضة العراقية أو رفض الانتماء إلى صفوف حزب البعث الحاكم أو إلى منظماته "المهنية".

- وضع جمهرة عوائل الأيزيديين تحت الضغط المستمر من أجل ابتزاز بعض بنات وأبناء تلك العوائل لتحويلهم إلى وكلاء يعملون في صفوف القوى السياسية المعارضة لصالحهم. وأن رفض هؤلاء أو هربوا إلى مواقع أخرى فأن عوائلهم هي التي ستعاني من المحاربة بالرزق والسجن والتعذيب والتنكيل المتنوع أو حتى القيام

بعمليات القتل ضد بعض أو جميع أفراد العائلة. ولم تقتصر هذه الظاهرة على عوائل الأيزيدية بل شملت العوائل المسيحية والمسلمة في مختلف مناطق العراق.

ويشير الدكتور خليل جندي إلى موضوع الإسكان القسري في المجمعات السكنية في مقالته المذكورة سابقاً فيقول: "بعد فشل الحركة القومية الكردية المسلحة عام ١٩٧٥ وبالضبط في ١٩٧٥/٥/٩ أصدرت الحكومة العراقية أمراً بترحيل جميع سكان القرى الأيزيدية في منطقة سنجار والبالغ عددها أكثر من (١٦٠) مائة وستين قرية وجمعها بشكل قسري في اثني عشر مجمعاً سكنياً، سبعة منها في شمال سنجار والخمسة الباقية في جنوب الجبل، علماً بأن السلطة البعثية وضمن سياسة التعريب (صهر القوميات غير العربية وإسكان العرب في مواقع سكانهم)، سمّت المجمعات الأيزيدية بأسماء عربية...، هذا إضافة إلى مركز قضاء سنجار حيث رحل الأيزيديون منه قسراً إلى الشمال والجنوب" (١١٦).

وفي بداية عام ١٩٧٥ ارتكب الحكم البعثي جريمة كبيرة راح ضحيتها (١٠٠٠) طفل من أطفال الأيزيديين بسبب الظروف المناخية القاسية بعد أن قامت أجهزة الحكم بتهديم قرى الفلاحين وطمر عيون المياه الجوفية والآبار ودفعوا بالسكان إلى أراضٍ جرداء قاحلة للانتقام غير المبرر منهم، بسبب مشاركة البعض منهم في الحركة المسلحة الكردية أو خشية مشاركتهم فيها (١١٧).

وجرياً مع الادعاء الشوفيني القائل بأن أصل الأيزيديين عربي وإسلامي أموي أيضاً، عمد الحكم إلى فتح مكتب سمي بالمكتب الأموي في بغداد يهتم بشؤون الأيزيديين بالرغم منهم. وبعد كل هذا وذاك اتخذ الحكم الاستبدادي العراقي في يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٩٥ قراراً يقضي بترحيل أهالي قضاء سنجار إلى الحضر قرب الموصل لتأمين تعريبهم وتحويلهم عن دينهم نحو الإسلام والقضاء على هويتهم الكردية الأيزيدية بعيداً عن كل القيم والمعايير الواردة في لائحة حقوق الإنسان التي اعترف بها ووقع عليها العراق، وكذلك ضد بنود القانون الأساسي العراقي الأول (١١٨).

(١١٦) نفس المصدر السابق. ص ٢.

(١١٧) نفس المصدر السابق. ص ٣.

(١١٨) نفس المصدر السابق. ص ٤.

ولم تكن الإجراءات التي اتخذت ضد الأيزيديين مقتصره على أهالي سنجار فحسب، بل شملت أهالي الشيخان أيضاً. فقد قامت وفي فترات مختلفة وابتداءً من عام ١٩٧٥ بترحيل سكان الكثير من القرى الأيزيدية في منطقة الشيخان وإسكانهم في مجمعات خاصة بنيت لهذا الغرض. ولم يكتف الحكم بذلك، بل أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً برقم ٣٥٨ في ١٦ آذار ١٩٧٨ يقضي بمصادرة جميع الأراضي العائدة للأيزيديين بعد أن رحلوا عنها عنوة أيضاً. في منطقة الشيخان وتوزيعها على العرب فيها (١١٩) ولا شك في أن العرب قد رحلوا إليها عنوة أيضاً.

وما تزال طرية أحداث الأنفال التي نفذها الحكم العراقي ضد بنات وأبناء الشعب الكردي حيث راح ضحيتها عشرات الألوف من الأبرياء، حيث تتراوح التقديرات بين ١٠٠٠٠-١٨٠٠٠٠ نسمة ماتوا بسبب تلك العمليات العسكرية. ورغم استسلام الكثير من السكان الأكراد إلى الحكومة العراقية، فأنها قامت بقتل الغالبية العظمى من هؤلاء الناس. وكان بينهم حسب المعلومات التي يشير إليها الأيزيديون ٢٣٥ شخصاً أيزيدياً، غالبيتهم الساحقة من الأطفال والنساء والشيوخ المسنين، ولم يعرف مصيرهم حتى الآن، رغم أن الدلائل تشير إلى موتهم على أيدي الذين قاموا بتنفيذ جريمة الأنفال البشعة (١٢٠).

إن الاضطهاد السياسي والديني من جهة، والإرهاب الدموي ضد الشعب الكردي، وعمليات التعريب القسرية والإسكان القسري في مجمعات بعيدة عن مناطق الأيزيديين وعن أماكنهم المقدسة من جهة ثانية، والتخلف العام الذي يواجه المنطقة وسكانها بشكل عام من جهة ثالثة، دفع بأعداد متزايدة منهم، من النساء والرجال، أو عوائل بكاملها إلى ترك العراق والهجرة إلى البلدان الأوروبية وغيرها حيثما أمكن الحصول على منطقة أكثر أمناً وسلاماً لهم. ولهذا فقد ازداد عدد الأيزيديين الذين تركوا العراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين وبلغ أكثر من ٦٠ ألف إنسان يقيمون في مختلف أنحاء أوروبا وفي أمريكا وأستراليا. ويقدر عدد الأيزيديين في ألمانيا وحدها بحوالي ٣٥ ألف إنسان. ويفترض أن لا ينسى المرء بأن الأيزيديين

(١١٩) نفس المصدر السابق. ص ٥.

(١٢٠) نفس المصدر. ص ٥.

الخاتمة

تؤكد جملة من المصادر التاريخية التي تبحث في أصل الديانة الأيزيدية أو الديانات القديمة عموماً إلى أن هذه الديانة تعتبر من بين أقدم الديانات التي ظهرت في العراق وإيران أو في الشرق عموماً. وتتجلى أو تلتقي في هذه الديانة طقوس وشعائر وتقاليد غير قليلة لأديان قديمة وأخرى "سماوية" حديثة نسبياً، بحيث أصبحت وكأنها الوعاء الذي استوعب الطاريء وأخذ به دون أن يغير من جوهر الديانة الأساسي، من علاقته بتصورات ومخاوف ورغبات الإنسان القديمة إزاء الطبيعة وظواهرها وعلاقته بها. والعهد المديدة التي مرت على هذه الديانة قد فرضت عليها تحت وطأة عوامل كثيرة جداً أن تأخذ ببعض تقاليد وطقوس الأديان الأخرى، وأن تدخل تحويرات على بعضها أو تتوقف عن أداء بعضها ولكنها لم تتخل عن طقوسها الأساسية. وقد عانى الأيزيديون لا من ضغط كهنة وأتباع الديانات الأخرى فحسب، بل ومن إرهاب العديد من أتباع الديانات الأخرى أيضاً، سواء كانت غير سماوية، أم سماوية، لأسباب عديدة في مقدمتها الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة من هذه المجموعة أو تلك، وأن كل البقية على خطأ كبير، وبالتالي ما ينشأ عن ذلك من إصرار على "الأنا" وعدم اعتراف بالآخر أو رفض له، ثم يتحول ذلك إلى خلافات حادة وصراعات ونزاعات دموية تقود إلى مظالم غير قليلة تتراكم مع الزمن ويصعب إزالتها من ذاكرة الإنسان المتوارثة، من ميشولوجيا هذه المجموعة البشرية أو تلك.

مرت على العراق عبر تاريخه الطويل الكثير من القبائل والشعوب والأقوام التي حطت فيه واستوطنته وتفاعلت مع سكانه الأصليين وتركت بصماتها على عاداته وتقاليدته وتراثه وثقافته ومجمل حضارته، سواء تلك التي استمرت في إقامتها فيه أو التي غادرت ثانياً، وسواء تلك التي حافظت على هويتها التي جاءت بها، أو تلك التي اندمجت بالمجتمع المتنوع الذي أقام فيه وأغنته بما جاءت به. والعراق اليوم الذي هو حصيلة هذا الماضي الطويل تعيش فيه مجموعات بشرية ذات انتماءات وارتباطات قومية وثقافية ودينية متعددة تضيف إليه الكثير من جماليات التنوع في الطبيعة ذاتها، حاضنة الإنسان، وتسمح له بمزيد من التفاعل والتأثير المتبادل والاعتناء المستمر، ولكنها تترك على أرض الواقع عبء خلافات وصراعات ونزاعات

الذين يقطنون أوروبا لا ينحدرون من العراق وحدها، بل من تركيا وسوريا أيضاً. ويجب أن نشير هنا إلى أن بقايا الأيزيديين من سكان تركيا قد عانوا الأمرين في العقدين المنصرمين على نحو خاص، حتى اضطروا أغلبهم إلى ترك موطنه والهجرة إلى أوروبا. حيث يقال أن عدد المتبقين منهم ضئيل جداً، وهي نتيجة منطقية للسياسات الشوفينية والدينية المتعصبة التي تمارسها الطغمة العسكرية الحاكمة عملياً في تركيا، رغم وجود مجلس نيابي وحكومة مدنية، إذ أن السلطة الفعلية بيد الجيش.

الماضي أيضاً التي يفترض أن يعمل الإنسان الحديث على إزالتها والعودة إلى ما هو إنساني فيه. وهذا لا يعني خلق مجتمع دون اختلافات وخرافات وتناقضات وصراعات ونزاعات، إذ لا يمكن أن نحلم بمجتمع دون تناقضات، بل الإمكانية ستكون متاحة لخلق آليات ديمقراطية لحل تلك الخلافات قبل أو حتى عند وصولها إلى درجة النزاعات بين المجموعات البشرية القاطنة فيه أو الجديدة التي ستقدم إليه. وهو ما يفترض أن نسعى إليه، رغم الليل المظلم، النفق المعتم الطويل، الذي يعيش فيه ويقطعه العراق في المرحلة الراهنة في ظل الاستبداد الذي تجاوز كل أشكال الاستبداد المنصرمة التي عرفها هذا البلد في تاريخه الطويل. وإذ كانت الأديان قد نشأت في رأس الإنسان، في تصورات وفكره، لتساعده في التغلب على مخاوفه ومشكلاته وزيادة أوجه أمنه واستقراره وإشباع حاجاته اليومية، فإنها وفي فترات مختلفة وطويلة، استغلت أيضاً في غير صالح الإنسان واستخدمت كأداة في الصراعات في ما بين المجموعات البشرية. وهكذا عانت الكثير من الجماعات البشرية، لا في العراق وحده، بل في سائر أرجاء العالم، بسبب دينها أو قوميتها أو عاداتها وتقاليدها وطقوسها، أو بسبب شكلها وشعر رأسها ولون بشرتها، أو بسبب لغتها، أو ما في أرضها من موارد أولية غنية كانت مطعماً للأقوياء والمستعمرين ... الخ. ولم ينته هذا الألم الذي تعاني منه الكثير من الشعوب، بل ما يزال مستمراً للكثير منها حتى الوقت الحاضر وسيبقى لفترة قادمة أيضاً حتى تتغير الكثير من أسس المجتمعات التي نعيش فيها والأحكام المسبقة والتصورات الخاطئة إزاء الآخر والتصور الخاطيء بامتلاك الحقيقة كلها دون الآخرين. وقد كانت المجموعة البشرية الأيزيدية من تلك المجموعات البشرية التي عانت كثيراً بسبب دينها، إضافة إلى معاناتها بسبب القومية الكردية التي تنتمي إليها.

وإذا كان أتباع الديانة الأيزيدية كافة ومهما كانت مواقعهم التراتبية أو الطبقيّة قد عانوا أو ما زالوا يعانون من التمييز العنصري والديني بشكل دائم تقريباً ومن جهات مختلفة، فإن الكادحين منهم على نحو خاص كانوا وما زالوا يعانون لا من ظلم واضطهاد أتباع الديانات الأخرى فحسب، بل وكذلك من أتباع نفس الجماعة الأيزيدية بسبب تباين التراتبية الاجتماعية-الدينية المفروض على المجتمع الأيزيدي، أي من الفئة المهيمنة على المجتمع دينياً ودنيوياً. وهي مسألة، كما تبدو للباحث، لا تنفرد بها، أو لا تقتصر على الأقلية الدينية الأيزيدية وحدها، بل تشاركها جماعات

دينية أخرى غير قليلة، بسبب علاقات الإنتاج السائدة في المجتمع العراقي وبسبب طبيعة النظام القائم فيه.

إن الجماعات المتنورة في المجتمع الأيزيدي التي كانت وما تزال تلعب دوراً مهماً في عملية التنوير والتثقيف العام لإخراج المجتمع من عزلته ومن الإشكاليات التي يعاني منها، بحاجة إلى التحري بعمق عن الكيفية التي يمكن بموجبها التخلص من الظواهر السلبية التي كانت وما تزال تعاني منها الأقلية الدينية الأيزيدية في العراق. ونشير في أدناه إلى بعض أبرز القضايا التي يفترض أن تكون مدار حوار في المجتمع الأيزيدي، إذ ستكون لمعالجتها نتائج إيجابية على الأيزيديين جميعاً:

- إثارة الحوار حول إشكالية التنوير الديني التي يفترض أن تمارس على الديانة الأيزيدية في المجتمع الأيزيدي، إذ إنها تعتبر من الحاجات الماسة لجميع الأديان التي لم تمر بعد بمثل هذه العملية التنويرية المطلوبة التي مرت بها أوروبا منذ قرون.

- ويفترض أن تمس العملية التنويرية مسألة الفصل بين الدين والدولة أو بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وكذلك دور المرأة في المجتمع الأيزيدي.

- التحرر من جملة من الأوهام والخرافات والأساطير غير المجدية والمضرة التي رافقت تطور الديانة والمجتمع الأيزيديين وعلقت بهما وتعيق تطور المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

- إثارة الحوار الدؤوب والمسؤول من أجل التخلص من التراتبية الطبقيّة الراهنة التي فرضت نفسها على المجتمع الأيزيدي منذ قرون، والتي لم تنفصل عن السلطة أو القوة الاقتصادية التي كانت وما تزال الفئات المالكة لوسائل الإنتاج والسلطة ممارستها في المجتمع الأيزيدي.

- التخلص من بقايا العلاقات الأبوية البالية وإحلال الجديد من العلاقات الاجتماعية في المجتمع. إلا أن هذه المسألة لا تنفصل بأي حال عن العلاقات القائمة في المجتمع الكردي خصوصاً والمجتمع العراقي بشكل عام. وهذا يتطلب وحدة النضال ضد العلاقات الأبوية والإقطاعية السائدة في المجتمع العراقي والتي كرسها النظام العراقي الراهن ولم تستطع الحكومات الكردية في الإقليم، حكومة أربيل وحكومة السليمانية التخلص منها، إذ إنها ما تزال هي السائدة.

- العمل من أجل البحث الدائم والدؤوب في التراث الثقافي والحضاري للمجتمع

الملاحق

ملحق رقم ١

تعرض المسيحيون وكذا اليهود وهم أهل كتاب ومن أهل الذمة في فترات مختلفة إلى التمييز والمعاملة القاسية وإلى اضطهاد وتعسف كبيرين على أيدي الحكام المسلمين. وكان الموقف من أهل الذمة متبايناً وفق فترات الحكم وسياسة وسلوك الخلفاء. كما كان موقع الوزير الأول أو أمير الأمراء أو السلطان يلعب دوراً مهماً، وفي أحيان كثيرة أساسياً، في الموقف من أهل الذمة. فمع تمتع الغالبية العظمى من أتباع الديانة المسيحية أو اليهودية أو الصابئة بحرية الدين والعبادة، فإن ظاهرة التمييز الديني بين المسلمين وبقية السكان من أصحاب الديانات الأخرى كانت ملموسة جداً ومضرة بالعلاقات الاجتماعية ومؤذية لهؤلاء الناس وغير عادلة أساساً. وكان التمييز الديني ضد أهل الذمة أو غيرهم ممن لم تدخل ديانتهم ضمن ديانات أهل كتاب، أي أن المسلمين رفضوا الاعتراف بهم على أنهم من أهل الذمة، مثل الديانة الأيزيدية، بل اعتبروهم من المسلمين المرتدين مثلاً، يظهر صراحةً ومقرفاً في عدد من الأمور، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- إلزام غير المسلمين بارتداء أزياء خاصة لتمييزهم عن المسلمين. ففي سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية أصدر الخليفة العباسي المتوكل (٨٤٧-٨٦١ ميلادية)، كما جاء في كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لمؤلفه أبي الفلاح عبدالحلبي ابن العماد الحنبلي، أمراً يقضي بهذا التمييز في الملابس حيث كتب ما يلي: "... أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالس العسلية والزنانير وترك ركوب السروج ونهي أن يستعان بهم في الدواوين وان يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم" (١٢١).

ثم يسجل نفس الكاتب عن "سنة تسع وثلاثين ومائتين فيها على ما قاله في الشذور أخذ المتوكل أهل الذمة بلبس رقعتين عسليتين على الأقبية والدراريح وان

(١٢١) أبي الفلاح عبدالحلبي ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء

الثاني، دار أحياء التراث العربي، بيروت ص ٨٢

الأيزيدي ضمن إطار المجتمع الكردي والعراقي، أو ما هو مستقل و متميز عنهما من أجل مساعدة المجتمع على السير بخطوات قوية نحو الديمقراطية والتقدم الاجتماعي والتخلص من أعباء الماضي السلبية. إن الانفتاح على العالم الجديد في ظل العولمة الموضوعية التي تعيشها البشرية، وهي التي تفرض على الأيزيديين أن يجدوا لهم مكاناً في هذا العالم الجديد بعيداً عن التقوق والانعزال. إذ لم يعد ممكناً ولا متماسياً مع العالم الجديد تلك التقاليد التي تفرض على الإنسان الابتعاد عن الزواج بامرأة أو رجل من شعب أو دين آخر، بل حتى من نساء ورجال الأيزيديين بسبب كونهم ينحدرون من عوائل معينة أو تراتبية معينة. إن هذه الظاهرة ذات المضمون الإثني الضيق هي التي يمكن أن تنشط أفكاراً عديدة عند الآخرين بما فيها تصور العنصرية والتمييز العنصري والديني الذي يفترض أن لا يسود في المجتمعات الحديثة بغض النظر عن الدين الذي يؤمن به هذا الإنسان أو ذاك.

- إن أتباع الديانة الأيزيدية وهم يناضلون من أجل التمتع بحقوق الإنسان كاملة غير منقوصة، كما هي واردة في شرعة حقوق الإنسان، أي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بما فيها الدينية، يفترض أن يناضلوا أيضاً من أجل أن يتمتع أتباع الديانة الأيزيدية ذاتها بحقوقهم المشروعة وأن يمارسوها في إطار مجتمعهم ذاته ولصالح أفرادهم. فحقوق الإنسان أخذ وعطاء، إنها شارع بمسارين ولا يمكن أن يكون مفتوحاً من جانب ومسدوداً من جانب آخر. ويشمل هذا الموقف مختلف الجوانب التي يفترض في الإنسان الأيزيدي أن يفكر بها لصالح تطوره وتطور المجتمع الذي يعيش فيه. ولا شك في أن إشكالية حقوق الإنسان لا تقتصر على أتباع الديانة الأيزيدية فحسب، بل تمس أيضاً أتباع بقية الديانات التي ترى أن من حقها أن تأخذ من حقوق الإنسان ما تريد وترفض ما تريد بحجة الخصائص المميزة لدينها وشعبها، في حين أن لحقوق الإنسان طابع إنساني شمولي وعام في آن واحد. وقد تجلّى التباين في وجهات النظر حول الموقف من حقوق الإنسان في المؤتمر الدولي لحقوق الإنسان الذي عقد في حزيران/يونيو من عام ١٩٩٣ في العاصمة النمساوية، فيينا. وقد تبلور الاختلاف في العديد من النقاط، ولكن على نحو خاص في الموضوع من المرأة ومن الدين على سبيل المثال لا الحصر. وقد برز هذا بشكل واضح في مواقف العديد من الدول الإسلامية وكذلك في تصورات أصحاب الديانات والفلسفات القديمة في الهند والصين وفي غيرها من بلدان العالم.

يضع النساء مقانعهن عسليات وان يقتصروا على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين" (١٢٢). وفي السنة اللاحقة فرض المتوكل أمراً جديداً يقضي، كما جاء في نفس المصدر بأن على "أهل الذمة بتعليم أولادهم العبرانية والسريانية ومنعوا من العربية ونادى المنادي بذلك فأسلم منهم خلق كبير" (١٢٣).

- منعهم من ارتياد محلات معينة والسماح لهم بارتياد محلات محددة فقط.

- إلزامهم بواجبات معينة أو حرمانهم من بعض الواجبات، مثل الاشتراك في الجهاد والحصول على سهم في الغنائم، إضافة إلى فرض دفع الخراج والجزية عليهم، وهما في جوهرهما إتاوتين يهدف منهما التمييز بين الذمي الحر والمسلم الحر (١٢٤).

وجدير بالإشارة إلى أن دافعي هاتين الإتاوتين كانوا لا يتمتعون بمردودهما بل يتمتع بها المسلمون فقط. ومن هنا يأتي رفض احمد صادق سعد اعتبارهما ضربيتين على الأرض والرأس (١٢٥).

لقد فقد أتباع الديانات الأخرى الكثير من الحقوق الأساسية التي يفترض أن يتمتع بها كل الذين ولدوا في الدولة العباسية أو جاءوا إليها وأصبحوا من رعاياها، وفق تعابير تلك الفترة. فعلى جميع الناس واجبات كما لهم حقوق، في حين أنها كانت في الحالتين منقوصة أو مسلوقة. وممارسة مثل هذه السياسة تعتبر إساءة كبيرة للإنسان وحقوقه المشروعة وتمييزاً مصحوباً بالتعصب لدين معين ضد الأديان الأخرى أو حتى الإثنية دون أخرى. وأصبح هذا الواقع غير الطبيعي أحد العوامل الأساسية في ضعف الدولة العباسية.

ورغم ما يملكه الدكتور عبدالعزيز الدوري من حس مرهف للكلمة، فإنه لم ينتبه

(١٢٢) نفس المصدر السابق، ص ٩١
البرذن = الفرس

(١٢٣) نفس المصدر السابق، ص ٩٢

(١٢٤) أحمد صادق سعد: دراسات في المفاهيم الاقتصادية لدى المفكرين الإسلاميين - كتاب الخراج لأبي يوسف، دار الفارابي - دار الثقافة الجديدة، بيروت - القاهرة ١٩٨٨، ص ١٠٧

(١٢٥) نفس المصدر السابق، ص ١٠٧، الهامش رقم ٨٤

ولم يشير إلى الموقف التمييزي المجحف والصارخ الذي تجلّى في خطاب علي بن عيسى والذي كان يمارس من قبل الحكام حينذاك، وكأن التمييز بين المسلمين وغير المسلمين مسألة طبيعية واعتيادية حتى في مجال العلاج الطبي. ويؤكد هذا النص الموقف الديني المتزمت للوزير علي بن عيسى إزاء أهل الذمة أولاً، وإزاء أتباع الديانات الأخرى ممن لا ينضون تحت قاعدة أهل الذمة ثانياً. إذ أنه وضع أهل الذمة في طبقة تقع بين المسلمين والبهائم، بدلا من أن يكتب إليه مشيراً بأن المعالجة تتم لمن هو أكثر حاجة إليها من البشر القاطنين في السواد، سواء كانوا من المسلمين أم من غير المسلمين، وسواء كانوا من أهل الذمة أم من غير أهل الذمة، فهم جميعاً من البشر ورعايا في الدولة العباسية. فمن يقرأ النص يلاحظ بوضوح ما يلي:

١- أن علي بن عيسى قد وضع أهل الذمة مع البهائم بقوله: "ليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب"، في حين أن سنان لم يسأل عن البهائم وأشار في رسالته إلى أن البيمارستان يعالج للملي والذمي "على حد سواء".

٢- وفضل علي بن محمد بين المسلمين وأهل الذمة، وكانوا يهوداً، معالجة المسلمين أولاً، ثم معالجة الذميين تالياً، ثم البهائم، في حين كان تصرف البيمارستان سليماً حين كان يعالج الجميع دون تمييز.

٣- وقد اعتبر علي بن محمد في رسالته أن المسلمين هم من الطبقة الأولى والأعلى، ثم تليهم طبقة الذميين، فالطبقة التي تليهم وهي طبقة البهائم.

٤- ويبدو أن معالجة المرضى من غير المسلمين وأهل الذمة والبهائم غير واردة أصلاً في عرف علي بن عيسى أو الدولة العباسية عموماً.

ولست هنا في معرض المقارنة بين ما قام به الحكام المسيحيون إزاء المسلمين أو إزاء أتباع الديانات الأخرى من مظالم مع ما قام به الحكام المسلمون إزاء المسيحيين أو إزاء أتباع الديانات الأخرى من مظالم، إذ أن البحث الموضوعي يقتضي الإشارة إلى المظالم التي تعرض لها أتباع الديانات الأخرى على أيدي الحكام المسلمين في الفترات التي نبحث فيها، لكي لا ينصرف ذهن القارئ إلى الاعتقاد بوجود محاولة للإساءة إلى الدين الإسلامي أو لأي دين آخر، بقدر ما يراى إبراز أن التعصب الديني والتزمت المذهبي، دع عنك الإثني، يقودان دون أدنى ريب إلى المصائب والآلام والضحايا. فتاريخ الحكام المسيحيين في أسبانيا إزاء المسلمين أو إزاء اليهود أو

ملحق رقم ٢

جاء في القصيدة التي نشرها الدكتور فرانك، صاحب كتاب "الشيخ عادي، المقدس الكبير عند أتباع الديانة الأيزيدية"، ما يؤكد بأنها لأحمد بن الرفاعي، التي تحاول تمجيد الشيخ عادي وتنسبه إلى نجد، وبالتالي تريد تأكيد كونه أموي النسب، وأنها في الغالب الأعم ليست من نظم الشيخ عادي بن مسافر، بعكس ما يراه الدكتور فرانك. وإليك بعض مقاطع من هذه القصيدة الطويلة (١٢٧).

شربت بكأس الحب من قبل نشأتني
سكرت بها من قبل توجد خلقتني
نعم نشأتني في الحب من قبل آدم
وسري على الأكوان من قبل نشأتني
رفعت على من إدعى الحب في الهوا
وقربني المولى ففزت بقربتي
سقاني وحيّاني وأضحى مُنادمي
وأضحى جليسي من أحب بخلوتي
وحكمني جمع الدنان وما حوت
فأصبحت جيوش الحب تحت مشييتي
نلت العلوم ونلت العز للأبد
بعون مولى كريم واحد أحد
وكنت في بطن أمي مذ خلقتُ أنا
مؤدباً حين نادي الشيخ بأمّ عدي
فردت الوالدة علشيخ مسرعة
لمن تنادي وما في القوم أم عدي
فقال لها الشيخ يزدا لك أقول أنا
إذا وضعت عدي عيذيه بالضم

(127) Frank, Rudolf Dr .Scheich "Adis" der grosse Heilige der Jez-
idis .Mayer & S.107-112. Mueller .Berlin .1911.

حتى إزاء المسيحيين ذاتهم معروف للجميع ولا يحتاج الإنسان إلى كثير عناء للبرهنة عليها أو الحديث عنها في هذا المجال. وما تزال ذكرى أحداث وجرائم محاكم التفتيش الجائرة طرية في أذهان الناس في كل مكان، بمن فيهم الناس في أوروبا، إذ أنها كانت من أشنع النماذج في التعصب الديني والمذهبي والقومي (١٢٦).

كما لا تزال في الذاكرة الأعمال الوحشية التي ارتكبتها النازية الألمانية بحق جماعات من البشر في ألمانيا وفي الأراضي التي احتلت من قبل قواتها العسكرية، سواء كانت بسبب ديني، كما هو الموقف من السامية، واليهود على نحو خاص، أم إزاء العجر، بسبب قومي عنصري، أو إزاء المسيحيين لاختلافهم معهم أو بسبب فكري، كما في الموقف من الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين عموماً.

(١٢٦) - الشالجي، عبود. موسوعة العذاب. كتاب في سبعة أجزاء. الدار العربية

للموسوعات. بيروت ولندن. بدون تاريخ.

- العلوي، هادي. فصول من تاريخ الإسلام السياسي. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. نيقوسيا/قبرص. ١٩٩٥.

- ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق. دار الكنوز الأدبية. بيروت. ط ١. ١٩٩٩.

أنا كنت في العليا ونور محمد
وفي قاب قوسين اجتماع الأحبتي
وظفت جنان الخلد شرقاً ومغرباً
وقد دمعت عيناى حسن الوسيلتي
فصحت ألا إني الرفاعي أحمد
فلبسيك أو سعديك قطب البريتي
فصحت ألا إني الرفاعي أحمد
فلبسيك يا سلطاننا في القيامة

إن قراءة هذه القصيدة تؤكد بأنها لم تكتب في فترة الشيخ عادي بن مسافر، حيث كانت الثقافة متقدمة واللغة العربية متميزة، كما يقرأها الإنسان في كتابات العديد من مثقفي ورجال دين تلك الفترة، إذ كما يبدو إنها كتبت في فترة الانحطاط الثقافي واللغوي في العراق وفي عدد من البلدان العربية حينذاك، أي في العهد العثماني. إذ أن اللغة التي كتبت بها القصيدة ركيكة جدا تخلط بين العامية والعربية، إضافة إلى افتقارها للوزن الشعري المطلوب في قصيدة عمودية. كما لم تجر الإشارة إلى أنها قد ترجمت عن اللغة الكردية، بل قيل إنها كتبت بالعربية أصلاً.

واقري السلام عليه مني وقولي له
الحق عقيلاً ولا تبدي ولا تعد
سمعته وأنا في البطن مُضَجَع
فقلت علي تكلم وهو في المهدي
وأصبحت سلطاناً على كل عابد
وكل ملوك الأرض يأتوا بذلتي
وجالت خيولي في الأراضي جميعاً
لي دقت الكوسات في كل وجهتي
وشاويش ملكي صاح شرقاً ومغرباً
كل الأراضي لم تُكمل خطوتي
وفي خانتني ادخل ترا الكاس دائراً
وما شرب العشاق إلا بقيتي
وكل رجال الله طافوا بجمعهم
وأما البيت يأتي قاصداً لزيارتي
أنا الفارس النجدي والاسم لي غدا
لى سائر الاقطاب حقت ولايتي
مريدي تمسك بي وكن لي واثقاً
أنا سيف هذا الكون لكل عظمتي
مريدي لكل البُشرا بذى العز والهنا
عنتق من النار لازم طريقيتي
مريدي سر شرقاً وغرباً وقبلة
وبراً وبحراً في الأراضي بسطوتي
أنا صاحب التصريف سلطان الولا
وكل ملوك العالمين رعيتي
أنا صاحب الناموس في الكون حاكم
غياتا للمهوف وحامي مكنتي

المصادر

أ. المصادر العربية والمترجمة على العربية

- سامي سعيد الأحمد: الأيزيدية: أحوالهم ومعتقداتهم، الكتاب في جزئين، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧١، الجزء الأول.
- سباهي، عزيز. أصول الصابئة المندائيين. منشورات المدى -١٨- دراسات. دمشق. ١٩٩٦.
- السعدي، سمير. الحسين بن منصور الحلاج: حياته، شعره، نثره. منشورات دار علاء الدين. دمشق. ١٩٩٦.
- السواح، فراس. كنوز الأعماق قراءة في ملحمة جلجامش. ط ١. دمشق. نيقوسيا - قبرص. سومر للدراسات والنشر. ١٩٨٧.
- سواح، فراس. مغامرة العقل الأول. دراسة في الأسطورة - سوريا وبلاد الرافدين. دمشق. دار الكندي. ط ٢. ١٩٨٩.
- الشالجي، عبود. موسوعة العذاب. كتاب في سبعة أجزاء. الدار العربية للموسوعات. بيروت ولندن. بدون تاريخ. ص ٢٥٠-٢٥٧.
- عبود، زهير كاظم. لمحات عن اليزيدية. بغداد. مكتبة النهضة. ١٩٩٤. بغداد.
- العزاوي، عباس. تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم. بغداد. مطبعة بغداد. منصف الثلاثينات من القرن العشرين.
- العلوي، هادي. فصول من تاريخ الإسلام السياسي. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. نيقوسيا/قبرص. ١٩٩٥.
- علي بن أبي طالب. نهج البلاغة. ط ١. بيروت. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ١٩٩٣.
- علي، فاضل عبدالواحد د. من سومر إلى التوراة. القاهرة. سينا للنشر. ط ٢. ١٩٩٦.
- غازاريان، هايكازن. وثائق تاريخية عن المجازر الأرمنية عام ١٩١٥. ترجمة نزار خليلي. سلسلة دراسات ووثائق المجازر الأرمنية. دار الحرية للنشر والتوزيع. حلب/سوريا. ط ١. ١٩٩٥.
- فتاح، شاكر. اليزيديون والديانة الأيزيدية. ط ١. بيروت ١٩٩٧.
- فتح الله، جرجيس. رجال ووقائع في الميزان. حوار أجراه ميد طيب وسعيد يحيى. دار تاراس للطباعة والنشر. أربيل. ٢٠٠١.
- القرآن. مصحف المدينة النبوية. سورة الكافرون. الجزء الثلاثون.
- القيسي. عبدالمجيد حسيب. هوامش على تاريخ العراق السياسي في رؤية جديدة - تاريخ القضية الأثرورية في العراق". لم يذكر أسم الناشر دار النشر ولا سنة الطبع والنشر، ولكن يبدو من متن المقدمة أنه في عام ١٩٩٥. ص ٥٢.
- أبي الفلاح عبدالحلي ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب، الجزء الثاني، دار أحياء التراث العربي، بيروت.
- أحمد صادق سعد: دراسات في المفاهيم الاقتصادية لدى المفكرين الإسلاميين - كتاب الخراج لأبي يوسف، دار الفارابي - دار الثقافة الجديدة، بيروت - القاهرة ١٩٨٨.
- أنجلز، فردريك. لودفيخ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، المختارات. ج ٤. موسكو. دار التقدم. ص ٦٠.
- بارندر، جيفري (Geoffrey, Parrinder). المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة: د. إمام عبدالفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة ١٧٣. تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت. ١٩٩٣.
- بريم، عصمت. نظرة تاريخية للديانة الأيزيدية.
- بشور، وديع د. سومر واكاد، دمشق ١٩٨١،
- توفيق، زرار صديق. موضوعات حول تاريخ اليزيدية واليزيديين. مجلة لالش. العدد ٥/ ١٩٩٥. دهوك.
- توكاريف، سيرغي أ. الأديان في تاريخ شعوب العالم. دار الأهالي. دمشق. ١٩٩٨.
- الجراد، خلف د. اليزيدية واليزيديون. اللاذقية. سوريا. دار الحوار للنشر والتوزيع. ١٩٩٥.
- جندي، خليل د. نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية. رابون. السويد. ١٩٩٨. ص ٢٠/٢١.
- جواد، مصطفى د. ونخبة من الباحثين. دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠. مطبعة التمدن. بغداد. ١٩٦١.
- حبيب، جورج. اليزيدية بقايا دين قديم. بغداد. ١٩٧٧.
- الحسني، عبدالرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الأجزاء من ١-١٠. مطبعة دار الكتب. بيروت. ١٩٧٤.
- ساكنز، هاري د. (Prof. Dr. Saggs, H. W. F.) عظمة بابل. موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة. ترجمة د. عامر سليمان إبراهيم. جامعة الموصل ١٩٧٩.

- Taufiq Wahby: The Remnants of Mihraism in Hara and Iraqi Kurdistan and its Traces in Yazidism. The Yazidis are not Devil Worshipers. London. 1962.
- Tokarew, S.A .Die Religion in der Geschichte der Voelker .Berlin. Dietz Verlag .1978 .
- Tokarew, S.A .Die Religion in der Geschichte der Voelker .Berlin. Dietz Verlag .1978.

- محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان
- محمد عبدالكريم الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، ١-٢، تخريج: محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، منشورات الشريف الرضي. بدون تاريخ.
- وبنهايم، ليوا. بلاد ما بين النهرين. ترجمة سعدي فيضي عبدالرزاق. ط ٢. وزارة الثقافة والإعلام- دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ١٩٨٦.
- ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق. دار الكنوز الأدبية. بيروت. ط ١. ١٩٩٩.

ب. الصحف والمجلات

- ١- بغداد. صحيفة حركة الوفاق الوطني العراقي. جريدة شهرية. العدد ٤٣٥. تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.
- ٢- روث. مجلة ثقافية دورية تعنى بالشؤون الأيزيدية. يصدرها مركز الأيزيدية في الخارج. الأعداد من ١٢١-١٩٩٧-٢٠٠٢. هانوفر. ألمانيا.
- ٣- لالش. مجلة ثقافية دورية يصدرها مركز لالش باللغتين الكردية والعربية. العدد ٥. دهوك. آب، ١٩٩٥.

ج. المصادر بلغات أجنبية

- Frank, Rudolf Dr .Scheich "Adis" der grosse Heilige der Jezidis. Mayer & S.107-112. Mueller .Berlin .1911.
- Freydank .Reineke .Schetelich .Thilo .Der Alte Orient in Stichworten .Koechler & Amelang .Leipzig .1978 .Hahn. Istvan Dr. Goetter und Voelker .Budapest .Corvina Buecher .1977 .
- Ilhan Kizilhan: Die Yeziden, Verlag medico international, Frankfurt/M. 1997.
- Istvan Hahn: Goetter und Voelker, Corvina Buecher, Budapest. 1968
- K .Marx .Zur Kritik der Hegelschen Rechtsphilosophie .Einleitung. In: Marx/Engels: Bwerke .Bd .\ .Berlin 1961.
- Kizilhan, Ilhan .Die Yeziden .Frankfurt am Main .Verlag medico international .1997 .
- R .H-W .Empsen: The Cult of the Peacock - Angel, London 1928.

الصور



مدخل معبد الايزيدية (الشيخ ادى بن مسافر) في وادي لالش في محافظة دهوك
في كردستان العراق



الكاتب وأمير الاقلية الايزيدية الكوردية (تخمين بيك والشيخ بابا الشيخ) اثناء انعقاد المؤتمر
العلمي العالمي للايزيدية

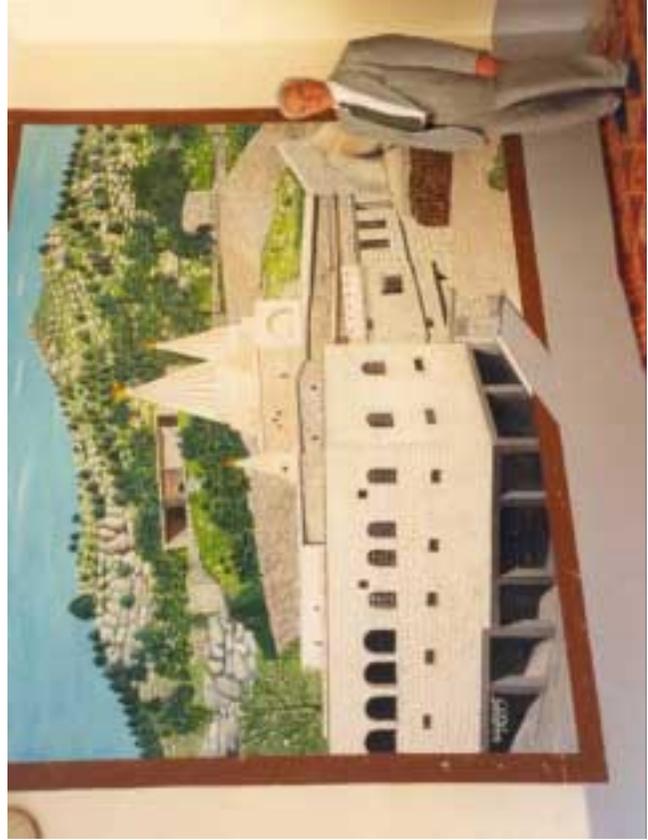


صورة لمعبد لالش من الداخل في كردستان العراق

امراة ايزيدية كوردية بملابسها التقليدية في باحة معبد لالش



صورة لبقبر احد كهنة المعبد البارزين في داخل المعبد



لوحة كبيرة معلقة على الحائط لباحة معبد لالاش ويجوارها الكاتب



الكاتب البروفيسور كاظم حبيب



صورة تجمع الكاتب مع بعض رجال الدين والعاملين في المعهد